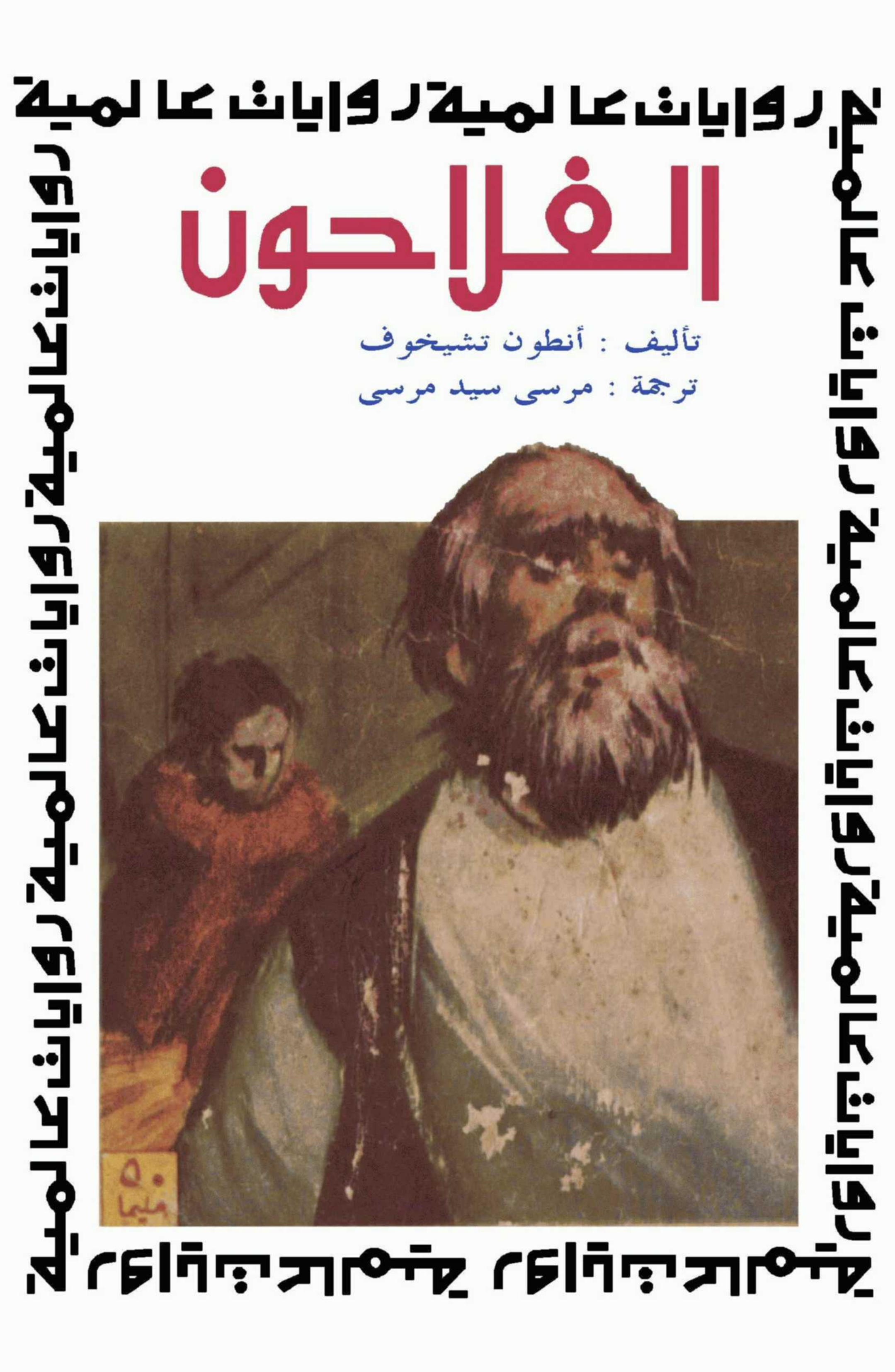

روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية
الفلاحون
تأليف : أنطون تشيخوف
ترجمة : مرسى سيد مرسى
٥٠ مليما

سلسلة

روايات عالمية

تصدر عن :

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

وزارة الثقافة

المشرف المسئول : د. محمد إسماعيل الموافي

العنوان : الإدارة العامة للنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة

تليفون : ٩١٢٤٦٠

الغلاف : اسماعيل دياب

روايات عالمية

العدد ٤٨١ - ١١ مايو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

الفلاحون

تأليف : أنطون تشيخوف
ترجمة : مرسى سعد مرسى

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
فرع الساحل

مقدمة

« ان لغـــة وأسلوب تشيخوف قمـة من المستحيل الوصول اليها ، واذا تكلم المرء عن تاريخ اللغـة الروسية لا بد له أن يقـــول ان فضل خلق هذه اللغة يرجـع الى بوشـكين وتورجينيف وتشـــيخوف » هكذا كتب مكسيم جوركى ٠

ولد أنطون بافلوفتش تشيخوف فى ١٧ ينـاير سنة ١٨٦٠ فى مدينة تاجانروج لاسرة فقيرة ، اذ كان والده من اقنان الارض وبعد تحرره فتح حانوت بقالة صغيرا ٠ وفى عـام ١٨٦٨التحق بمدرســة المدينة فى ســنة ١٨٧٣ ـ وبخلاف دراسته فى المدرسة ـ التحق بمدرسة الصنائع لتعلم أى حرفة ولكنه لم يواصل دراسته بها ، وفى سنة ١٨٧٧ تركت أسرته المدينة وهاجرت الى موسكو لمصاحبة أشقائه الكبار الذين بدءوا دراستهم الجامعية ، وبقى هو فى المدينة لمواصلة دراسته الثانوية ، وصار يعطى دروسا خصوصية ليتعيش منها كما كان يرسل بعض النقود الى الاسرة فى موسـكو ٠ وأثنـــاء دراسته كان يكتب بمجلة المدرسة كما كان يكتب المسرحيات لفرقة المدرسة المسرحية٠

وفى سنة ١٨٧٩ أنهى دراسته الثانوية وسافر الى موسكو حيث التحق بكلية الطب فى جامعة موسكو وتخرج منها سنة ١٨٨٤ وبجوار عمله كطبيب أخذ يحضر رسالة للحصول على درجة الدكتوراه فى موضوع « الطب فى روسيا » .

بدأ تشيخوف حياته الادبية كصحفى وكاتب فى المجلات الفكاهية الصغيرة حيث كان يكتب كل شيء : فكاهات ونكت وتعليقات على رسوم « الكاريكاتير » ومقالات فى النقد الادبى والفنى ، والقصص القصيرة ... الخ . وقد وصف تشيخوف هذه الفترة من حياته بقوله : «كنت أكتب القصص كما يكتب المحققون الصحفيون عن الحرائق. وكنت أحاول فى كتاباتى ألا أستعمل تلك الشخصيات والموضوعات العزيزة على والتى يعلم الله وحده لماذا كنت أحفظها وأخبئها » ، ومع ذلك لم تكن قصصه هذه من النوع المألوف فى ذلك الوقت ، تلك القصص التى تتحدث عن جهل التجار وعن الزوجات الخائنات والازواج المخدوعين والحموات الشرسات ... الخ ، فلم يكن يحاول أن يجعل قصصه مضحكة فقط بل كان يحاول أن يضع فيها مضمونا معينا .

نشرت أول قصة له بعنوان « خطاب الى جارى العالم» سنة ١٨٨٠ ثم توالت قصصه القصيرة الصغيرة الحجم العظيمة المضمون تلك القصص التى وضعته على عرش

القصة القصيرة ونذكر منها «السمين والرفيع» ، «الحرباء» ، «الصول برشبييف» ، «فانكا» ، و «أريد أن أنام» .

ولم يترك تشيخوف كتابة المسرحيات وظهرت أولى مسرحياته الكبيرة « ايفانوف » سنة ١٨٨٩ ، ولقد اشترك تشيخوف مع ستانسلافسكى ونيميروفتش - داتشنكو المخرجين الشهيرين فى خلق « مسرح موسكو الفنى » الذى لعب دورا هاما فى تطوير المسرح الروسى بل والمسرح العالمى ، ومن أشهر مسرحياته «النورس» ، «الخال فانيا» ، «الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» التى أنهى بها حياته الفنية وحياته كلها .

لقد بدأ تشيخوف حياته الفنية فى الثمانيات من القرن الماضى حيث كانت الرجعية فى اوج سطوتها فى روسيا، وحيث كانت السلبية والتشاؤم والضياع تسيطر على فئات واسعة من المثقفين ، ذلك بعد افلاس فلسفات الشعبيين ولم تكن أى فلسفات جديدة قوية قد ظهرت بعد.

أخذ تشيخوف يهاجم فى كتاباته الوضاعة والنذالة أينما وجدت ، وصار يكشف الفساد المستشرى فى جميع نواحي وأركان المجتمع الروسى ويلقى الاضواء عليه ، لم يكن تشيخوف يجيب فى كتاباته على السؤال «ما العمل؟» بل ولم يكن يشير ولا بالرموز على اجابة لهذا السؤال وكان يقول انه قبل أن نذكر ما الواجب وما المفروض أن يكون يجب أن نعرف جيدا ما الكائن والموجود فعلا .

وكان تشيخوف فى أول حياته الفنية متأثرا بأفكار الاديب الفيلسوف الروسى ليف تولستوى ، كان مؤمنا بأن الانسان يستطيع أن يحل كل مشاكله بحبه لاخيه الانسان، وبالقناعة والرضا والتسامح ، ولكنه تدريجيا أصبح يرى أســـباب الفساد فى النظم القائمة وفى سيطرة المال ذلك خصوصا بعد عودته من رحلته الى جزيرة ساخالين ـ شرق سيبيريا ـ منفى روسيا القيصرية ، تلك الرحلة التى قام بهـا سنة ١٨٩٠ ليتعرف جيدا على كل نواحى الحياة فى روســـيا وكان لهـا أسوأ تأثير على صحة الكاتب المريض بالسل · كذلك ساعدته على تحديد وتعميق مفاهيمه تلك الفترة من حياته التى قضاها وسط الفلاحين فى أحد القرى القريبة من موسكو حيث ابتاع قطعة أرض شيد على جزء منها منزلا صغيرا واستقر به لعدة سنوات وأخذ يشـترك فى أعمال البر لمساعدة الفلاحين الفقراء وفى بناء المدارس كما عمل فى مكافحة وباء الكوليرا الذى انتشر عامى ١٨٩٢، ١٨٩٣ وهنا رأى الكاتب بنفسه عن كثب هول حياة الفلاح الروسى الذى كان يقاسى الفقر والجـوع والجهـل والمرض والفودكا · فصـــار تشيخوف فى كتاباته يتنبأ بالمستقبل المشرق السعيد وينتقد سلبية وتهلهل ووصولية المثقفين بل ويدعو ـ على لســان بعض أبطاله ـ الى النضال فى سبيل بلوغ هذا المستقبل · فمثلا فى قصته «قصة رجل مجهول» تقول بطلة القصة : «ان معنى ومضمون الحياة يتركز فقط فى النضال ، لا بد من سحق رأس الحية الوضـيع ! هذا

هو معنى الحياة • هنا نجد المعنى أو لا معنى للحياة اطلاقا»
ولكن وكما قال جوركي كان هدف كتابات تشيخوف أساسا
هو توضيح الحقيقة التالية : من المستحيل أن يواصل المرء
الحياة بالطريقة الحالية •

اشتد المرض على الكاتب فسافر الى خارج روسيا للعلاج
مرتين ، ثم سافر الى مدينة يالتا على البحر الاسود حيث
شيد هناك «فيلا» واستقر فيها للاستجمام والعلاج •

وفي سنة ١٩٠٠ اختير تشيخوف عضوا بالاكاديمية
الروسية ، وفي سنة ١٩٠٢ رفض هذه العضوية احتجاجا
على عدم موافقة القيصر نيكولاى الثاني على قرار علماء وأدباء
روسيا باختيار جوركي عضوا بالاكاديمية •

في سنة ١٩٠١ تزوج تشيخوف من احدى ممثلات
« مسرح موسكو الفني » وفي يونيو سنة ١٩٠٤ ساءت
حالته الصحية فسافر مع زوجته الى ألمانيا للعلاج حيث
توفي هناك سريعا ، وأعيد جثمانه الى روسيا ودفن في
٩ يوليو سنة ١٩٠٤ •

لقد عمق تشيخوف الاتجاه الواقعي في الادب الروسي
وكان أبطاله من الناس البسطاء العاديين ، بل لقد كان يرى
في كل انسان موضوعا كاملا لقصصه • ولم تكن قصص
ومسرحيات تشيخوف غنية بالحوادث بل كانت مليئة
بالتحليل والتحليل النفسي وكان يرى المأساة من خلال
الفكاهة والفكاهة من خلال المأساة •

وكان أسلوب تشـــيخوف يتميز بالبساطة المتناهية والدقة القاسية فى اختيار الكلمات حتى لقـد كان يتوقف أحيانا لأســـابيع أمام كلمـة أو جملة معينة حتى يستقر اختياره على ما يرضيه ٠

ويعرف القارىء العربى أنطون تشـيخوف من خلال قصصه القصيرة ومسرحياته وهنـا سيتعرف القـارىء على قصتين طويلتين من أشهر ماكتب تشيخوف ، دارت حولهما المناقشات وطاردتهما الرقابة ٠٠ الاولى « العنبر رقم ٦ » التى نشرت سنة ١٨٩٢ فى مجلة « الفكر الروسى » وفى سلسلة « للقراء المثقفين » والثانية «الفلاحون» التى نشرت فى المجلة الاولى سنة ١٨٩٧ ٠

ولعلها المرة الاولى التى تنقل فيها قصص لتشيخوف من الروسية الى العربية مباشرة وقد يكون هذا هو السبب الذى جعلنى أتمســك بالنص حتى أعطى للقـــارىء فكرة واضحة عن أسلوب الكاتب وأرجو أن أكون قد وفقت الى جانب ذلك فى نقل روح العمل الادبى لهذا الفنان العظيم٠

الفلاحــــون

شخصيات الرواية

نيكولاى تشيكلدييف	Nikolai Tchikildeev
أولجا	Olga
كرياك	Kiriak
ماريا	Maria
فيكلا	Fekla
ساشا	Sasha
أوسيب	Ossip

- ١ -

مرض نيـــكولاى تشيكلديف الخـــادم فى فنـــدق « سلفيانسكى بازار » فى موسكو • أصبحت قدماه تنمل وتغيرت مشيته ، وذات مرة تعثر ووقع عندما كان يحمل صينية عليهـــا طبـــق من اللحم بالبسلة ، فاضطر لترك العمل • ونفدت كل النقـود التى كانت لديه ولدى زوجه على العلاج وأصبح لا يملك ما يقتات به ، ومل الحيـــاة بلا عمل فقرر العودة الى قريته ، فالمعيشة بل والمرض نفسه أســـهل عندما يكون الانسان فى موطنه ، وصدق المثـل الشعبى القائل : فى بيتك حتى الجدران تساعدك !

وصـــل قريتـــه ـ جوكوفو ـ مساء • كانت ذكريات الطفولة تصـــور له بيته مضيئا مريحا لطيفا ولكنه عندما دخل المنزل بهت ، لقـــد كان المكان ضيقا مظلما قذرا • وكانت زوجه أولجا وابنته ساشا قد حضرتا معـه فأخذتا تنظران بتعجب وعـدم فهم الى الفرن الكبيرة التى تشـغل نصف المنزل تقريبـــا • لقد كانت تلك الفرن سوداء من الســـناج والذباب ، ياللعدد الذباب المهول ! كانت الفرن مائلة ، مثلها كمثل القوائم الخشبية التى تقوم عليها الجدران مما يوحى بأن المنزل سينهار فى الحال •

وعلى الفرن جلست طفلة فى الثامنة ، بيضاء الرأس، غير مغتسلة ، غير مهتمة بشيء لدرجة انها لم تلق نظرة على الداخلين ، وكانت هنـــاك قطة على الارض تتمسح بركن الفرن ، فنادت عليها ساشا : بس بس بس ! فقالت الطفلة الجالسة على الفرن :

ـ انها لا تسمع ، لقد أصيبت بالصمم ٠

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ٠ ضربوها ٠

ومن الوهلة الاولى أدرك نيكولاى وأولجا كيف تكون الحياة هنا ، ولكنهما لم يتبادلا أى كلمة ، وألقيا بمتاعهما وخرجا الى الشارع صامتين ٠ كان منزلهم الثالث من ناحية اليمين ، يوحى منظره بأنه أفقر البيوت وأقدمها ، ولم يكن البيت الثانى أحسن حالا أما المنزل الذى على الطرف فكان ذا سقف معدنى ونوافذه ذات ستائر ولم يكن حوله سور٠ كان به حانة ٠ وكانت المنـازل مصفوفة بنظام والأشـجار تطـل من الافنية المحيطة بالبيوت ممـا يعطى القرية منظرا هادئا شاعريا وعموما كان منظر القرية لطيفا ٠

وبعد بيوت الفـــلاحين يبدأ منحنى شديد الانحدار يوصل الى النهر، تظهر فيه بعض الصخور العارية وفجوات من أثر حفر صناع الأوانى الفخارية ، كما نجد طريقا ضيقا متعرجا ، مليئا بأكوام من بقايا الأوانى الفخارية المهشمة ٠

وعلى شاطىء النهر تنبسط مروج واسعة ذات لون أخضر زاه قد جزت حشائشها وتتجول عليهـــا قطعان ماشـــية الفلاحين • ويقع هذا النهر الكثير المنحنيات على بعد فرسخ واحد من القرية ، وعلى الشاطىء المقابل أيضا نجد المروج الواسعة عليها القطعان وطوابير الاوز الابيض • ثم يرتفع التل ارتفـــاعا مفاجئا ، وعلى هذا التل تقع قرية أخرى ، صغيرة ، بها كنيسة ذات أبراج خمس ، وعلى مسافة غير بعيدة يوجد منزل السادة •

رسمت أولجـا علامة الصليب على صدرها ناظرة الى الكنيسة وقالت :

ــ ان المنظر عندكم رائع • يالاتساع دنيا الله !

وفى هذه اللحظة دقت أجراس الكنيسة داعية لصلاة العشية (كان اليوم سبتا) والتفتت الى الكنيسة طفلتان كانتا تحملان دلوا مليئا بالماء • وقال نيكولاى بصوت حالم:

ــ هذا هو وقت الغداء فى «سلافيانسكى بازار» ••

وجلس نيكولاى وأولجا على حافة المنـــحدر ليشاهدا الغروب ، وليشاهدا السماء الذهبية الحمراء المنعكسة على صفحـــة النهر وعلى نوافذ الكنيسة بل وفى كل الهـــواء اللطيف ، الهادىء ، النظيف لدرجة غير معقولة ، هذا الهواء الذى لا يوجد مثله فى موسكو •

غربت الشمس ، وعادت القطعان تخور ، وعاد الأوز

طائرا من الشاطىء الآخر · هدأ كل شيء ، وانطفأ الضوء الخافت العالق بالهواء ، وزحفت ظلمة الليل سريعا ·

وفي هذه الاثناء عاد العجوزان ، والد ووالدة نيكولاى النحيفان المحنيان الأهتمان بقامتيهما المتساويتين فى الطول· كما عادت النسـوة ·· زوجتا الأخين · ماريا وفيكلا · كان الجميع يعملون عند السيد على الشاطىء الآخر · وكان لماريا زوج الاخ كرياك ستة أطفال ولفيكلا زوج الاخ دينيس ـ المجند حاليا ـ طفلان · ولما دخل نيكولاى البيت ورأى العائلة مكتملة ـ كل هذه الاجساد الكبيرة والصغيرة التى تتحرك على الحصائر وفى الامهاد القذرة وفى كل الاركان ، ورأى العجوز والنسوة يأكلن الخبز الاسود بعد غمسه فى الماء أدرك انه أخطأ فى العودة الى القرية مريضا، دون نقود بل ومصطحبا أسرته ·

وبعد أن سلم على الجميع سأل :

ـ أين أخى كرياك ؟

فقال الأب :

ـ انه يعمل خفيرا عند التاجر · فى الغابة · كان من الممكن أن يصبح فلاحا جيدا ولكنه يشرب كثيرا ·

وقالت المرأة العجوز :

ـ عديم الفائدة ! ياللمرارة · ان رجالنا لا يمدون

البيت بالمال بل يأخذون منه · ان كرياك يشرب ، وكذلك العـــجوز · تلك هى الحقيقة · انهم يعرفون الطريق الى الحانة جيدا · لقد غضب علينا الرب ·

وتحية للضيوف وضعوا السموار(١) · كانت رائحة السمك المملح تفـــوح من الشاى ، والسكر رمادى اللون مقروض ، وتتجول الصراصير على الخبز والاوانى · فشربوا الشـــــاى متقززين ، وكان الحديث أيضا مقززا يدور كله حول الحـــــاجة والفقر والمرض ، وبعـــد أن شربوا الكوب الاول (٢) سمعوا صرخة ممدودة ثملة : ماريا !

فقال العجوز : لقد جاء كرياك · ما ان تذكره حتى يحضر ·

هدأ الجميع وبعد لحظــات تكررت نفس الصرخة ، فظة ، طويلة ، ممدودة كما لو كانت آتية من تحت الارض: ماريا !

فاصـــــفر وجه ماريا والتصقت بالفــرن ، وكان من الغريب أن يرى على وجه هـــــذه المرأة ــ القوية ، عريضة الكتفين ، القبيحة ــ تعبير الخـــــوف ، وبكت فجأة طفلتها

---

(١) السموار : جهاز لصنع الشاى ، عبارة عن اناء معـــدنى اسطوانى كبير ، ذو صنبور ، بأسفله فرن صغيرة تعمـــل بالفحم فيغلى الماء بالاناء ، ويحفظ الجهاز حرارة الماء لمدة طويلة ــ المترجم

(٢) يشرب الروس عادة اكثر من كوب من الشــاى ، ويشربونه بالسكر أو بالمربى أو بالعسل ·

الصغيرة ـ تلك التى كانت جالسة على الفرن وكان منظرها يدل على عدم الاهتمام . فصرخت في وجهها فيكلا ـ وهى امرأة جميلة ، قوية عريضة المنكبين أيضا ـ قائلة :

ـ ما الذى جرى لك أيتها الكوليرا ؟ لا أظنه سيقتلها !

وعلم نيكولاى من العجوز ان ماريا تخاف أن تشارك كرياك الحياة فى الغــابة ، وعندما يكون الاخير ثملا يأتى ليأخذها وعندئذ يرتفع صياحه عاليا ويضربها بلا شفقة .

ولما جاءت الصرخة من وراء البــاب تماما : ماريا ! قالت ماريا متضرعة لاهثة الانفــاس ـ كمن وقــع فى ماء شديد البرودة » .

ـ احمونى بحق المسيح ! احمونى يا أحبائى ..

فبكى كل الاطفال وبكت ساشا لبكائهم ، ثم سمع الجميع ســعالا ثملا ودخل رجل طويل القــامة ، اســود اللحية ، على رأسه طاقية شتوية . ولم يسمح ضوء المصباح الضعيف برؤية وجهه ممــا جعل منظره مخيفا . هذا هو كرياك . اقترب من زوجته وضربهــا بقبضته على وجهها بكل قوة . لم تخرج من فمها أى صرخة بل بهتت من هول الضربة . وركعت على ركبتيها والدم يسيل من أنفها .

فقال العجوز صاعدا على الفرن :

ـ ياللعار ! أفى وجود الضيوف ؟ حرام !

وجلست المرأة العجوز صامتة محنية الظهر تفكر فى شيء ما ، وأخذت فيكلا تهدهد أحد الصغار ..

ويبدو أن كرياك كان راضيا اذ يشعر بنفسه مخيفا فأمسك بيد ماريا وجرجرها الى الباب وزأر كالوحش حتى يبدو مخيفا أكثر ، وهنا رأى الضيوف فتوقف وقال تاركا زوجه :

ـ آه . لقد جاءوا .. شقيقى وأسرته .

ورسم علامة الصليب أمام الايقونة ووقف فاتحا قدميه مهتزا محملقا بعينيه الثملتين الحمراوين وقال :

ـ لقد عاد شقيقى وأسرته الى بيت العائلة ... من موسكو اذن . أعظم مدينة ، اذن ، مدينة موسكو ، أم المدن ... أرجو المعذرة .

وارتمى على الأريكة بجوار السموار وأخذ يشرب الشاى . كان يرتشفه من طبق الفنجان بصوت مرتفع فى ظل صمت الآخرين. وشرب حوالى عشرة فناجين ثم مال على الاريكة وشخر .

استعد الجميع للنوم فوضعوا نيكولاى ـ بصفته مريضا ـ على الفرن بجوار العجوز ، ورقدت ساشا مع الاطفال على الارض ، أما أولجا فقد ذهبت مع النسوة الى كوخ الحظير .

وعندما رقدت أولجا على التبن بجوار ماريا قالت :

ـ ايه يا عصفورتى لن تتحسن حالتك حتى لو احترقت بالدموع لا يوجد الا الصبر • ولقد جاء فى الانجيل : «اذا ضربك أحد على خدك الايمن أدر له الايسر». ايه يا عصفورتى ! ثم أخذت تقص على النسوة بتنغيم وبصوت خفيض عن موسكو ، وعن حياتها هناك ، وعن عملها كخادم فى الشقق المفروشة وأنهت حديثها قائلة :

ـ والكنائس فى موسكو كثيرة جدا ، والبيوت كبيرة ومبنية بالحجارة ، يسكن فيها سادة محترمون على جانب كبير من الجمال •

فقالت ماريا انها لم تر موسكو أبدا ، ولا حتى مدينة المركز • لم تكن متعلمة ، ولا تعرف الصلاة بل لا تحفظ حتى « أبانا الذى » ولقد كانت هى وفيكلا ـ التى جلست عن كثب تنصت للحديث ـ فى منتهى الجهل ، لا تفهمان شيئا • وكانتا تكرهان زوجيهما ، ماريا تخاف كرياك وترتجف رعبا اذا صارت معه فى خلوة ، وتشعر بمنتهى الضيق من قربه اذ كانت رائحة الفودكا والطباق تفوح منه دائما • أما فيكلا فقد أجابت على السؤال عما اذا كانت تشعر بالحنين لزوجها البعيد قائلة :

ـ فليذهب الى الشيطان •

تحدثن ثم سكن ••

كان الجو باردا نوعا ، وصراخ الديكة يمنع النوم •

ولما بدأ ضوء الصباح الازرق يتخلل الثقوب الموجودة فى جدران الكوخ نهضت فيكلا بهـــدوء ، وخرجت ، وترددت وقع أقدامها الحافية وهى تجرى الى مكان غير معلوم ٠

- ٢ -

توجهت أولجا الى الكنيسة وصحبت معهـــا ماريا ، انحدرتا على الطريق الضـــيق المتجه الى المروج مرحتين : أولجا معجبة بالفضـــاء المتسع وماريا ترى فى أولجا انسانا عزيزا قريبا الى قلبها ٠ كانت الشمس تشرق ، وبالقرب من الارض ، على المرج يطير صقر لم يستيقظ تماما بعد ، وبدا النهـــر غير واضح جيـــدا للعيـــان لأن الضباب لازال يتجول هنا وهناك ، ولكن شريط الضوء كان يغطى التلال على الشاطىء المقابل ، وتلمع أبراج الكنيسة تحت أشعة الشمس ، والغربان تنعق بقوة فى حديقة السادة ٠

وكانت ماريا تتحدث قائلة :

ـ العجوز غير سيىء ٠ أما المرأة العجـــوز فقاسية ، تتعـــارك معنـــا ٠ ويكفينا قمحنـــا عادة حتى عيـــد وداع الشتاء (١) ثم نبدأ فى شراء الدقيق من الحانوت ، فتصرخ عندئذ العجوز قائلة اننا نأكل كثيرا ٠

---

(١) عيد سلافياتى قديم يحتفل به فى نهاية الشـــتاء ، وتصنع فيه الفطائر ٠

ـ ايه يا عصفورتى • الصبر ولا شىء غير الصبر • يقول الرب : « تعالوا الى يا جميع المتعبين وثقيلى الاحمال » •

وكانت أولجا تتكلم ببطء وتنغيم ، وهى تمشى كالراهبات ، بسرعة واتزان • وكانت تقرأ فى الانجيل كل يوم بصوت مرتفع وبطريقة القساوسة ، ولم تكن تفهم الكثير مما تقرأه ولكن الكلمات المقدسة كانت تؤثر عليها تأثيرا بالغا حتى لتكاد الدموع تطفر من عينيها ، وكانت تنطق بالكلمات السلافية القديمة ـ التى لا زالت تستعمل فى الانجيل ـ بقلب واجف مملوء بالرضا ، وكانت تؤمن بالله والأم المقدسة وبالقديسين ، وتؤمن بأنه لا يجب اغضاب انسان على وجه الأرض ، سواء كان هذا الانسان عاديا ، أو المانيا ، أو من الغجر ، أو من اليهود • بل تؤمن بأن الله سيعذب حتى من لا يعطف على الحيوانات ، وتؤمن بأن هذا كله مكتوب فى الكتاب المقدس • لذا كان وجهها ينير وتعبر قسماته عن الرضا والسكينة ذلك عندما تنطق بأى كلمات من الانجيل حتى لو كانت هذه الكلمات غير مفهومة لديها •

وسألتها ماريا :

ـ من أين أنت ، أصلا ؟

ـ أنا من منطقة فلاديمرسك ، أخذونى من قريتى منذ مدة طويلة ، عندما كنت فى الثامنة من عمرى •

وعندما اقتربنا من النهر لمحنا امرأة تخلع ملابسها فعرفتها ماريا وقالت :

ـ هذه فيكلا • انهـا تزور الخولى ورجاله • وهى لعوب سليطة اللسان لدرجة مذهلة !

أخذتا تنظران الى جسدها الجميل الشـاب القوى ، وحواجبها السوداء الواضحة كالمرسومة وشعرها المسدل على أكتافها • ورمت فيكلا بنفسها فى الماء وأخذت تضربه بأقدامهـا بقوة ، فتتناثر الرذاذ وتموج المـاء من حولها • وكررت ماريا :

ـ يا لها من لعوب !

وعبر النهر كانت هنـاك قنطرة مبنيـة من قوائم الأخشاب المتعـامدة ، يرى من تحتها المـاء الصافى الذى تظهر فيه قوافل السمك • وكان الندى يلمع على أوراق النباتات القريبة من الماء • وصار الجو دافئا لطيفا • يا له من صباح رائع ! ويبدو أنه من الممكن أن تكون الحياة على هذه الارض رائعة لولا الحاجة ، الحاجة الفظيعة التى لامخرج منها ولا مفر • وتكفى التفاتة واحدة الى القرية لتتذكر كل ما كان بالأمس ـ فضـاع فى الحـال الشعور بالسـعادة المتصورة •

ولما وصلنا الى الكنيسة توقفت ماريا عند الباب ولم تجرؤ على التقدم • بل ولم تجرؤ على الجلوس أرضا مع ان

الاجراس لم تدق لبدء الصلاة الا فى التاسعة، وظلت واقفة طوال الوقت ٠

وعنـدما بدأت قراءة الانجيل سرت همهمـة وتحرك الناس ليفسحوا الطريق لعـائلة السادة ٠ دخلت فتاتان فى قبعات كبيرة ، معهمـا ولد سمين زهرى الوجه مرتديا لباسا كلباس البحارة ، ولقد تأثرت أولجا لرؤيتهم وقررت من النظرة الاولى انهـم اناس مهـذبون محترمون مثقفون وعلى جانب كبير من الجمال ٠ أما ماريا فقـد رمتهم بنظرة كئيبة منقبضة غاضبة، نظرة من تحت الجفون ٠ كما لو أن الداخلين ليســوا بآدميين بل غيـلان ضارية تستطيع أن تطحنها بالاقدام اذا لم تفسح لها الطريق ٠

بدأ القس فى القراءة وعنـدما كان صـوته الأجش يرتفع كان يخيل اليهـا انها تســمع صرخة « ماريا » فترتجف ٠

- ٣ -

علم أهـل القرية بحضور الضيوف فامتـلأ المنزل ـبعد الصلاةـ بالزوار ، فحضر آل التشوف وآل ماتفيتش وآل ليونشوف ليسألون عن اخبـار ذويهم الموجودين فى موسكو ٠ لقد كان كل من يعرف القراءة من أهل جوكوفو يهاجر الى موســكو للعمل فقط كخدم وسـعاة فى فنادقها

ومقاهيها · (ومثلا كان المهاجرون من القرية الواقعة على الشاطىء الآخر يهاجرون للعمل فقط كخبازين) وهكذا جرت العادة من قديم ـ من عهد القنانة (١) ـ عندما كان أحد المهاجرين الأوائل من قرية جوكوفو ـ لوكا ايفانوفتش ـ يعمل عامل بوفيه في أحد نوادي موسكو وكان يساعد مهاجري جوكوفو فقط في الالتحاق بالعمل ، وهؤلاء الجدد يستدعون بدورهم أقاربهم ومعارفهم فقط ويساعدونهم في الالتحاق بالعمل في المطاعم والفنادق والمقاهي · ولقد هاجر نيكولاى من القرية عندما كان في الحادية عشرة ، وألحقه بالعمل رجل يدعى ايفان مكارتش من آل ماتفيتش الذى كان يعمل ساقيا في قهوة « ارميتاج » · فتوجه نيكولاى بالحديث الى آل ماتفيتش قائلا :

ـ ان لايفان مكارتش فضلا كبيرا على وسأدعو له طول عمرى لأنه هو الذى ساعدنى في أن أصبح انسانا جيدا ·

فقالت أخت ايفان مكارتش ـ وهى امرأة عجوز ـ دامعة :

ـ قل لى يا بنى ما أخبار حضرته ؟

---

(١) القنانه ـ كان الفلاحون في روسيا اقنانا للأرض أى مثبتين اليها ويعتبرون من املاك صاحب الأرض الذى يملك عملهم وحق بيعهم وشرائهم وحق عقابهم بالسجن او الجلد او النفى الى سيبيريا وحق ارسالهم الى الجيش كمجندين . ألغيت القنانه سنة ١٨٦١ فى عهد القيصر الكسندر الثانى ـ المترجم

ـ فى الشتاء الماضى كان يعمل فى قهوة « آمون » وفى الموسم الحالى يعمل فى أحد ملاهى الضواحى ٠٠ لقد كبر ! فى الماضى كان يحصل أحيانا فى اليوم الواحد على حوالى عشرة روبلات ، أما الآن فقد أصبحت الحالة هادئة فى كل مكان ٠٠ لقد تعب العجوز ٠

وكانت النسوة والعجائز تنظرن الى حذاء نيكولاى البالى والى وجهه الشاحب المريض قائلا :

ـ أنك عاجز عن الكسب يا نيكولاى اوسيبتش ! لن تستطيع أن تتكسب ! لن تستطيع !

وكان الجميع يدللون ساشا ٠ كانت فى العاشرة ولكنها كانت قصيرة ونحيفة بحيث تظهر كما لو أنها فى السابعة لا أكثر ٠ وكان منظرها غريبا وسط الاطفال السمر البشرة ذوى الشعر الغير مقصوص والقمصان الطويلة ، فلقد كانت بيضاء ذات عينين سوداوين واسعتين وشريط أحمر فى شعرها ٠ فبدت أشبه بالثعلب الصغير الذىاصطادوه فىالحقل واحضروه للمنزل للفرجة٠

وقالت أولجا ناظرة بعطف وحب الى ابنتها :

ـ انها تستطيع القراءة ٠

وأخرجت من جيبها انجيلا ناولته لابنتها قائلة :

ـ اقرئى يا بنتى ! اقرئى ليسمع المسيحون الطيبون!

كان الانجيل قديما ، ثقيلا ، مجلدا ، أطرافه مقروضة ، وتصاعدت منــه رائحة جعلت الناس يتصورون أن احدى الراهبات دخلت البيت • رفعت ساشــا حاجبيها وبدأت القراءة بصوت مرتفع ونبرات منغمة :

ــ « فقال يوسف لاخوته تقـدموا الى • فتقدموا • فقال أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » •

فكررت أولجــا وراءها « •• الذى بعتموه الى مصر » واحمر وجهها فرحا • وواصلت الصغيرة :

ــ « والآن لا تتأسفوا أو لا تغتاظوا لأنكم بعتمونى الى هنا • لأنه لاستبقاء حيوة أرسلنى الله •• »

وعندئذ لم تتحمل أولجا فبكت تأثرا • ونظرت اليها ماريا وشــهقت هى الاخرى • كمــا شهقت أخت ايفــان مكارتش • وســعل العجوز جدها وأخــذ يبحث عن شىء يعطيه لحفيدته مكافأة لها ولكنه لم يجد شيئا فأشار بيده فقط • ولما انتهت الطفلة من القراءة تفرق الجيران كل الى منزله • وكان الجميع متأثرين وراضين عن أولجا وساشا•

بقى الجميع فى المنزل للراحة فلقــد كان اليوم أحد الأعياد الدينية ، وبمحض ارادتها انهمكت العجوز ــ التى يناديها زوجهــا وزوجات أبنائهــا وأحفادها بالجدة ــ فى القيام بالواجبات المنزلية وحدها ، فهى التى حمت للفرن وللسموار بل وتوجهت للعمل نصف يوم• ثم أخذت تشكو وتقول ان الجميع قد اضنوها بالعمــل • وقد كانت دائما

تلاحظ بقلق حتى لا يأكل أحد أكثر من نصـــيبه ، وحتى لا يجلس العجوز أو زوجات ابنيهـا دون عمل ، وكانت تتخيل أحيانا انها تسمع صياح أوز صاحب الحانة يتهجم على الزرع الموجود فى حديقـة الدار فتأخذ عصـا طويلة وتقف بجوار الكرنب ـ النحيل الذابل مثلها تماما ـ وتأخذ فى الصياح ، وأحيانا أخرى تتخيل أن الغراب يتهجم على الـكتاكيت فتجرى صارخة للدفاع عنهـا • وكانت دائما غاضبة تصيح من الصباح الى المساء وتثير أحيانا ضجيجا صاخبا لدرجة أن المارة فى الشـارع يتوقفون لاستطلاع الأمر •

وكانت طريقتها فى الحديث مع زوجها غير لطيفة ، وتبدأ الحديث معـه دائمـا باحدى كلمتى : الـكسول أو الكوليرا • ولقد كان العجوز فلاحا سيئا لا رجاء منه لو لم تدفعه دائما للعمل لما عمل شيئا البتة بل لجلس على الفرن وأخذ يثرثر • لقـد قص على نيكولاى كثـيرا عن أعداء ما وشكا له من أن جيرانه دائما يغضبوه ، وكان حديثه دائما مملا •

فكان ـ مثلا ـ يمسك بجنبه ويقول :

ـ أجل • أجل •• بعد الحصاد بأسبوع بعت التبن بسعر القنطار ثلاثين كوبيكا ، بمحض ارادتى •• أجل •• حسنا •• ولـكن ، اذن صباحا وأنا أنقل التبن ، بمحض ارادتى ، فى حالى اذا بالعمـدة أنتيب سيديلنكوف خارجا

من الحانة ، فقال لى « الى أين أيها الـ ٠٠ ؟ » وضربنى على أذنى ٠

وجلس كرياك فى منتهى الخجل أمام أخيه من أفعاله بالأمس وكان يعانى من صداع حاد من اثر الشرب وأخذ يهز رأسه قائلا :

ـ يا للفودكا وما تفعله الفودكا يا الهى ! اعذرنى يا أخى بحق المسيح ! أنا نفسى غير راض عن أفعالى ٠

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانوتى سمكة مملحة وطبخوا على رأسها شوربة ، وفى منتصف النهار جلس الجميع حول السموار لشرب الشاى ، وشربوا كثيرا حتى نضح العرق من أجسادهم بل حتى شعروا بالانتفاخ ، وبعد الشاى جلسوا ليأكلوا الشوربة بالخبز من حلة واحدة ٠ أماالسمكة نفسها فقد أخفتها الجدة ٠

ومساء كان صانع الفخار يحرق الطمى عند شاطىء النهر ، والبنـــات تغنى فى المروج ، والشـباب يعزف على الأوكرديون ، وعلى الشاطىء الآخر كانت ترى فرن أخرى لصنع الفخار ٠ والبنات أيضا تغنى ٠ وبدأ الغناء جميـــلا منتظما من بعد ، وانبعثت ضوضاء الفلاحين من الحــانة المجاورة ، يغنون بصوت ثمل ، كل يغنى على حدة ، وكان سبابهم بذيئا لدرجة أن أولجـا كانت ترتجف عند سماعه وتتمتــم « يا الهى ! » وكانت تتعجـب من أن السـباب لا ينقطع لحظة ، ومن أن أكثر من يسبون وأعلاهم صوتا هم

هؤلاء العجائز الذين يقفون على حافة القبر ٠ أما الأطفال فكانوا يستمعون الى هـذا السباب دون خجل وفى منتهى الهدوء ويبدو أنهم قد تعودوا عليه من المهد ٠

كان الوقت بعد منتصف الليل وانطفأت الفرن على هذا الجانب من النهر،كما انطفأت على الجانب الآخر ، ولكن الناس لا يزالون يلهون على المروج وفى الحانة ، تقدم العجوز وكرياك مخمورين الى الـكوخ حيث تنـــام ماريا وأولجا ، ايديهما متشابكتين وأكتافهما تتصادم ٠

وأخذ العجوز يقنع ابنه قائلا :

ـ اتركها ٠٠ لاداعى ٠٠ انها امرأة طيبـــة ٠٠ هذا حرام ٠٠

ولكن كرياك صرخ :

ـ ماريا ! ، ووقفا حوالى دقيقة أمام الكوخ ثم ذهبا٠

وفجأة بدأ العجوز فى الغناء بصوت عال رفيع :

ـ أنا أحـــب زهر الحقـــول ٠٠ احب أن أجمعـــه فى المروج !

ثم بصق وسب سبابا بذيئا ودخل البيت ٠

- ٤ -

أمرت الجدة ساشا بالوقوف بجوار الحديقة لحراستها من الأوز ٠ وكان اليوم أحد أيام أغسطس الحـــارة ٠ لم

يحاول أوز صاحب الحانة دخول الحديقة فلقد كان مشغولا بالتقاط بعض الحبوب متحدثا بسلام الا أحد الذكور الذى رفع رأسه كأنه يستطلع ، هل تقف الجد بعصاها الطويلة، أما بقية أوز القرية فكان يرعى هناك عند النهر فى صف أبيض طويل . وقفت ساشا قليلا ثم ملت ، ولما رأت أن الأوز لا يقترب توجهت ناحية المنحدر .

ورأت هنا ابنة ماريا الكبرى ـ موتكا التى كانت واقفة على صخرة ضخمة تنظر الى الكنيسة بلا حراك . لقد ولدت ماريا ثلاث عشرة مرة ولم يبق لها الا ستة أطفال كلهم بنات ، بلا ولد واحد ، وكانت كبرى بناتها فى الثامنة . كانت موتكا حافية القدمين مرتدية قميصا طويلا تقف فى الحر تحت أشعة الشمس التى تكاد تحرقها ولكنها لم تكن تلاحظ ذلك بل كانت كالتمثال. فوقفت ساشا الى جانبها وقالت ناظرة الى الكنيسة :

ـ ان الله يعيش فى الكنيسة والناس يستعملون الشموع والمصابيح للاضاءة ، أما الله فيستعمل القناديل الحمراء والخضراء والزرقاء التى تشبه العيون ، وفى الليل يسير الله داخل الكنيسة ومعه الام المقدسة والقديس نيكولاى . توب . توب . توب ... فيدخل الرعب قلب حارس الكنيسة ! وأضافت مقلدة أمها :

ـ ايه يا عصفورتى . عندما يأتى يوم القيامة ستطير كل الكنائس الى السماء .

فسألت موتكا بصوت أجش ونبرات متقطعة :

ـ بأجراسها ؟

ـ بأجراسها ، وفى يوم القيامة سيذهب الخيرون الى الجنـة ، وسيحترق الغـاضبون فى نار أبدية لا تنطفىء . هكذا يا عصفورتى . وسـيقول الرب لأمى وللماريا « انكما لم تغضبا أحدا ، لذا اذهبا الى اليمين ، الى الجنة » وسيقول لكرياك وللجدة « أما أنتما فالى اليسار ، الى النار ! » كما سيذهب كل من يفطر فى وقت الصيام الى النار .

ونظرت الى أعلى ، الى السماء محملقة وقالت :

ـ انظرى الى السماء دون أن يهتز لك جفن وسترين الملائكة .

أخذت موتكا تنظر الى السماء ، وانقضت دقيقة فى صمت وسألتها ساشا :

ـ أترين ؟

فأجابت موتكا بصوت أجش :

ـ لا أرى شيئا .

ـ أما أنا فأراهم ، يطيرون على صـفحة السـماء ، أجنحتهم صغيرة ، صغيرة كأجنحة البعوض .

فكرت موتكا ناظرة الى الأرض ثم سألت :

ـ وهل ستحترق الجدة فى النار ؟
ـ ستحترق يا عصفورتى ٠

وكانت احدى جوانب الصخرة تلتصق بمنحدر مغطى بحشائش خضراء تغرى بلمسها باليـد وبالرقاد عليهـا ، فرقدت عليهـا ساشا وتدحرجت الى أسفل فرقدت موتكا أيضا ـ وعلى وجههـا تعبير فى منتهى الجدية ـ وتدحرجت فتمزق قميصها من على الكتف ، وقالت ساشا بمرح :
ـ كم هذا مضحك !

وصعدتا الى أعلى ليتدحرجا مرة أخرى ، ولكن وصل الى آذانهما صراخ حاد تعرفانه جيدا ٠ أوه ٠ يااللفظاعة ! كانت الجدة ـ الهتمـاء المعضمة المحنية الظهر التى يتطاير شعرها الاشـيب مع الريح ـ ممسكة بعصـا طويلة تطرد الأوز من الحديقة صارخة :

ـ أفسدتم كل الكرنب يا ملاعين ، لتقصف رقابكم، لعنكم الرب ثلاثا ، يا مصائب ، الا تنفقون ٠

ولما رأت الصغار رمت بالعصا والتقطت فرع شجرة من على الأرض ، وأمسـكت بساشا من رقبتهـا بأصابعها الجافة الصلبة كالكماشة وأخذت تضربها ، فأخذت ساشا تبكى من الألم والخوف ٠ وفى هذه الاثناء اقترب ذكر أوز من العجوز وفح شيئا ما ، ولما عاد الى بقيـة زملائه حيوه جميعا مشجعين ٠ كاك كاك كاك ! ثم بدأت الجـدة تضرب موتكا فتمزق قميصها مرة أخرى ٠

توجهت ساشا وهى تشعر بالتعاسة والشقاء باكية صارخة الى البيت لتشــكو ، وسارت وراءها موتكا باكية أيضا ، بصوت أجش دون أن تمسح عيونها ، وكان وجهها كله مبتلا كما لو صب عليه ماء ٠

ولما رأتهما أولجا تعجبت وقالت :

ــ يا الهى ! يا أمنا التى فى السموات !

وبدأت ساشا تقص ، ودخلت الجدة صارخة تسب وتلعن ، وغضبت فيكلا أيضا فامتــلأ المنزل بالضوضاء ٠ وامتقع وجه أولجا من الحزن وقالت لساشا مهدئة :

ــ معلهش معلهش ! انهــا جدتك وسترتكبين ذنبــا كبيرا اذا غضبت عليها ٠ معلهش يا صغيرتى !

وكان نيكولاى يتعذب من الصراخ الدائم ومن الجوع والحر والروائح الكريهة، وكان يكرهويحتقر الفقر ، ويشعر بالخجل من والديه أمام زوجته وابنتــه ، فضاق الآن ذرعا وقال لأمه بصوت باك :

ــ لا يحق لك ضربهــا ! ليس لك أى حق مطلق فى ضربها ٠

فصرخت فيكلا حانقة :

ــ تجلس على الفرن وتجلجل ! ما الذى جاء بكم الى هنا يا آكلى الروث ؟!

وأسرعت ساشا وموتكا وكل البنات فى الصعود على الفرن وتجمعن خلف ظهر نيكولاى ، وصرن ينصــتن الى الحديث فى صمت وخوف ، ودقت قلوبهن الصغيرة بصوت مسموع . وعندما يكون أحد أفراد الاسرة مريضا يقاسى من مرضه ـ الذى لا شفاء منه ـ من زمن بعيد ، فأنه توجد أحيانا فترات عصيبة يرغب فيها كل أقاربه فى موته فى خجل وفى السر ، فى أعماق اعمـــاقهم . اما الاطفال فهم وحدهم الذين يخافون موته ، وعندما تلوح هــذه الفكرة تمتلىء قلوبهم بالرعب . وفى هذه اللحظة نظرت البنات الى نيكولاى حابسين انفاسهن وعلى وجوههن يظهر حزن عميق، وصرن يفكرن فى أنه قريبا سيموت وشعرن برغبة جامحة فى البكاء ، وفى أن يظهرن له بعض العطف والشفقة .

واقترب نيكولاى من أولجا كأنه يحتمى بها ، وقال لها بصوت خفيض مرتجف :

ـ أولجا يا عزيزتى ، لا أستطيع مواصلة هذه الحياة، لقد انهارت قواى ، بحق الرب وبحق المسيح اكتبى لاختك كلافديا ابراموفنا ان تبيع أو ترهن أى شىء وترسل لنا نقودا لنغادر هذا المكان . ثم اضاف مبتئسا :

ـ أوه يا الهى . ليتنى القى ولو نظـــرة واحدة على موسكو ليتنى أراها ـ آمنا ـ فى المنام .

ولما خيم الظلام على البيت بعد هبوط المساء ، كانت الصدور منقبضة لدرجة انه من الصـــعب أن يتفوه احد

بكلمة • وأخذت الجدة الغاضبة تغمس قطعة من خبز الشوفان فى فنجان ماء ، وتمتصها ، وظلت تمتصها لمدة ساعة كاملة • واحضرت ماريا دلو اللبن بعد أن حلبت البقرة ووضعته على الاريكة فأخذت الجدة تملأ الطواجن الفخارية باللبن وتفعل ذلك ببطء مطمئنة ان أحدا لن يشرب منه شيئا لأن الوقت كان صيام العذراء وصبت مقدارا صغيرا جدا فى طبق فنجان لاطعام طفل فيكلا الرضيع • ولما خرجت مع ماريا لنقل الطواجن الى الكوخ نهضت موتكا فجأة ونزلت من على الفرن بسرعة واقتربت من الاريكة حيث كان فنجان الجدة بخبزها ومائها وصبت فيه اللبن الموجود فى طبق الفنجان •

وعادت الجدة وواصلت مص الخبز وأكله فأخذت ساشا وموتكا تنظران اليها من على الفرن فى منتهى الرضا من ان صيام الجدة قد بطل ولابد انها ستذهب الى جهنم • وهكذا هدأت نفساهما وخلدا الى النوم • وصارت ساشا تتصور والنوم يداعب جفونها - يوم القيامة : تضطرم النار فى فرن كبيرة مثل فرن صانع الفخار ، ويأتى الشيطان الأسود الجسم ذو القرون الشبيهة بقرون البقره ليسوق الجدة الى النار بعصا طويلة كالتي كانت تطرد بها الأوز من الحديقة •

- ٥ -

في عيد العذراء ـ في الحادية عشرة مساء تصاعدت الصرخات من المروج حيث كان الشباب يلهو ، وجرى الجميع متجهين الى القرية . ولم يفهم أحد من الجالسين عند المنحدر ما سبب الضجيج ، ثم سمع صراخ مبتئس من ناحية القرية : « حريق ! حريق ! » .

التفت الجالسون أعلى المنحدر الى القرية فظهرت أمام أعينهم صورة رهيبة غير عادية ، رأوا على سطح منزل من الخوص عمودا من نار طوله حوالى متران يدور بجنون قاذفا بالحمم والشرر فى جميع الاتجاهات مثل النافورة . وفى الحال شبت النار فى كل السطح وتصاعدت ألسنتها اللامعة وسمع صوت النار تفح ملتهمة كل ما على السطح .

وبهت ضوء القمر وامتلأت كل القرية بالضوء الأحمر المرتعش المنبعث من النيران ، وتتابعت الظلال السوداء على الأرض وعبق الجو برائحة الشياط ، وكان الناس يهرولون ولا يستطيعون الكلام من الرعشة التى تملكتهم ، ويتصادمون ويتعثرون ، ويرون بصعوبة ولا يتعرفون على بعضهم البعض لعدم تعودهم على الضوء الساطع . تملك الجميع الرعب ، وأكثر ما كان يخيف الناس ان الحمام يطير فوق النيران فى الدخان ، ومن الغريب أن أصوات الغناء والموسيقى لا زالت تتصاعد من الحانة التى لم يعلم روادها بعد بخبر الحريق .

وصرخ أحدهم بصوت متحشرج عال :

ــ ان منزل العم سيمون يحترق ! •

وأخذت ماريا تسير بعصبية حول منزلها باكية خائفة تصطك اسنانها مع أن الحريق بعيد فى الطرف الآخر من القرية ، وخرج نيكولاى من البيت ، وجرى الأطفال فى قمصانهم •

وضرب أحدهم بمطرقة على لوح صاج بوم • بوم • بوم ••• فانقبضت قلوب الجميع من هذا الرنين الكريه ، وخرجت النسوة العجائز بالأيقونات ، وأخرج الفلاحون بهائمهم من الحظائر ، كما أخرج الجميع صناديقهم وحاجياتهم من الدور • وانطلق فرس شرس مشهور بعض الخيل وجرى ذهابا وايابا بطول القرية صاهلا ضاربا الارض بأقدامه ثم توقف بجوار عربة وأخذ يرفسها بقدميه الخلفيتين •

ودقت أجراس الكنيسة على الشاطىء الآخر •

وبجوار البيت المحترق كانت الحرارة شديدة ، والضوء ساطعا لدرجة أن المرء يستطيع أن يميز بوضوح أصغر قطعة تبن على الأرض • وعلى أحد الصناديق التى استطاع الرجال اخراجها من البيت جلس سيمون • وهو فلاح أحمر الشعر كبير الانف لابسا طاقيته حتى أذنيه • وكانت زوجته راقدة على الارض ، دون وعى ، وجهها الى أسفل ، تتأوه • كما كان هناك رجل عجوز ، فى حوالى

الثمانين ، عارى الرأس ، قصير القامة ذو لحية كبيرة ، يشبه الكهنة ، لم يكن من أهل القرية ، والظاهر ان له علاقة بالحريق · كان هذا العجوز يحوم حول المكان حاملا صرة بيضاء تنعكس النيران على صلعته ·

واقترب العمدة انتيب سيد لنكوف ـ الاسمر الوجه والشعر ـ من المنزل المحترق ، حاملا فأسا حطم بها النوافذ الواحدة بعد الأخرى لسبب غير مفهوم ، ثم حطم مدخل المنزل وصرخ قائلا :

ـ أيتها النسوة · احضروا الماء ! الى بماكينة الحريق ! هيا بسرعة !

فحملها الرجال على أكتافهم · هؤلاء الرجال الذين كانوا يلهون فى الحانة من دقائق قليلة ، وكانوا جميعا مخمورين ، يتعثرون ، على وجوههم تعبير العجزة ، واعينهم دامعة · وصرخ العمدة الذى كان مخمورا مثلهم :

ـ الى بالماء يا بنات ! هيا بسرعة !

فصارت البنات والنسوة تجرى بسرعة لملء الدلاء من النهر ثم يفرغونها فى ماكينة الحريق · وكذلك كانت أولجا وماريا وساشا وموتكا يحملن المياه · اشترك فى ذلك كل النسوة والاولاد · وكان خرطوم المياه يفح والعمدة انتيب ممسكا به ضاغطا على فوهته ليزيد من اندفاع الماء ، يوجهه تارة الى الباب وتارة الى النوافذ ، فقال البعض مشجعا :

ـ حسنا يا انتيب ! حسنا !

وتقدم انتيب من المدخـــل داخلا فى النـــار وصرخ قائلا :

ـ ضخوا يا رجال ! فى هذا الوقت العصيب لابد من العمل !

وكان معظم الرجال واقفين لا يفعلون شيئا ، لم يكن احد منهم يعرف ما يجب عمـله بل لم يكن احد يسـتطيع شيئا . ولقد كان هناك غير بعيد جرن قمح وتبن ، واكواخ مخازن ، وحظائر ، وأكواخ وقود . كما وقف كرياك وابوه العجوز أوسيب ضـــمن الواقفين ، وكأن العجوز يحـاول مداراة وقوفه دون عمل فتوجه للمرأة الراقدة على الأرض قائلا :

ـ لا تحزنى ياقريبتى ! ان المنزل مؤمن عليه ، فلم الحزن ؟

وأخذ سيمون يحكي للرجال عن ســبب الحريق ، فقال :

ـ هذا العجوز الممسـك بصرته ـ خادم الجـنرال جوكوف ... كان يعمل عند الجنرال جوكوف ـ اسكنه الله جناته ـ طاهيا . جاء فى المساء قائلا « اسمح لى ان أبيت عندك الليلة ... » حسنا ، شرب كل منا كوبا من الفودكا معلوم ... وحمت المرأة السموار لتسقى العجوز الشاى .

ليتها لم تفعل ٠ واذا بالنار تخرج من مدخنة السموار ، اذن في السقف حالا ، في البوص ، وطبعا ٠٠٠ وكدنا نحن ايضا ان نحترق ٠ بل لقد احترقت طاقية العجوز ٠ يا للمصيبة !

استمر الدق على لوح الصاج كما كانت أجراس الكنيسة تدق أحيانا ، وتوقفت أولجا في النور تلهث وتنظر برعب الى الخراف الحمراء بسبب ضوء النيران والى الحمام الوردي الذي يطير وسط الدخان ، ومن بدء الحريق كانت تجري من النهر واليه تشعر بأن رنين الطرقات على لوح الصاج يغوص في روحها كالسكاكين ، وبأن هذا الحريق لن ينطفيء أبدا ، وبأن ساشا قد تاهت ٠ ولما وقع سقف المنزل محترقا سيطرت عليها فكرة بأن القرية كلها لابد ستحترق فأحست بالضعف التام ولم تستطع مواصلة حمل الماء ٠ فجلست بجوار المنحدر حيث جلست بعض النسوة يولولن ٠

ولكن ها هو الخولي وبعض العمال قد أتوا من الناحية الأخرى ، من عزبة السادة ، على عربتين وأحضروا معهم ماكينة حريق أخرى ٠ كما جاء طالب من السادة ممتطيا صهوة جواد مرتديا جاكتة بيضاء مفتوحة ، كان شابا صغير السن ٠ وارتفعت الفئوس ، ووضعوا سلما على جدار المنزل المحترق صعد عليه خمسة رجال معا وفي مقدمتهم الطالب ، وبوجه محمر أخذ يصرخ بصوت مرتفع مبحوح وبلهجة واثقة كأن اطفاء الحرائق شيء عادي بالنسبة

له • وأخذوا فى فك القوائم الخشـبية التى تقوم عليهـا الجدران كما فكوا خوص حظيرة الخنازير والجرن المجاورين فارتفعت أصوات حادة تقول :

ـ لا تسمحوا لهم بالتحطيم ! لا تسمحوا •

فتقدم كرياك من العمال بثقة كما لو كان يرغب فى منعهم من ذلك العمل ، ولكن أحد العمال لوى ذراعه وأداره للخلف وصفعه على قفاه ، فتصاعدت الضحكات ، وضربه العامل مرة أخرى فوقع كرياك على الأرض وابتعد زاحفا على أربع •

ومن بيت السادة قدمت أيضا فتاتان ـ غالبا شقيقتا الطالب ، ووقفتا عن بعد لمشاهدة الحريق ، وانطفأت القوائم الخشبية ولكن مازال الدخان يتصاعد منها بكثافة • وكان الطالب ممسـكا بخرطوم المياه موجهـا تيار الماء الى تلك القوائم تارة ، والى جمع الفلاحين تارة ، والى النسوة تارة أخرى ، فتوجهت اليه الفتاتان بتحذير وقلق صارختين : « جورج ! جورج ! » (١) •

انطفأ الحريق وعندما بدأ الناس يتفرقون لاحظوا أن الفجر قد بزغ ، وان الجميـع شاحبون وسـمر الوجوه قليلا ـ هكذا يخيل للمرء فى الصباح الباكر عندما تنطفىء

---

(١) الاسم الصحيح بالروسية هو جيورجى ولكن بعض أبنـاء الطبقة الارستقراطية يقولون جورج للتدليل ـ المترجم •

فى السماء أواخر النجوم . وأخذ الفلاحون يضحكون ويتفكهون على طاهى الجنرال جوكوف ، وعلى طاقيته التى احترقت . وكأنهم يريدون ان يلعبوا لعبة الحريق مرة أخرى ، بل وكأنهم حزنوا قليلا من أن الحريق انتهى بهذه السرعة .

وتوجهت أولجا الى الطالب قائلة :

ـ لقد قمت يا سيدى بعمل طيب . لو كنت عندنا فى موسكو لرأيت كل يوم حريقا :

فسألتها احدى البنتين :

ـ وهل أنت من موسكو ؟

ـ أجل . اجل . كان زوجى يعمل فى «سلافيانسكى بازار » ، واشارت الى ساشا التى التصقت بها من البرد، وأضافت :

ـ هذه ابنتى . هى أيضا من موسكو .

فقالت البنتان للطالب بضع كلمات بالفرنسية فأعطى الاخير عشرين كوبيكا للطفلة .

ولما رأى العجوز أوسيب ذلك ، داعبه أمل فقال للطالب :

ـ يجب أن نشكر الرب يا سيدى المحترم ان الريح

لم تكن شديدة ، والا لاحترقت القرية كلها فى ظرف ساعة. وأضاف بخجل مخفضا صوته :

ـ ان الجو بارد والانسان فى حاجة الى الدفء ... الا تتكرم على بثمن نصف زجاجة . ولم يعطوه شيئا فسعل وتوجه الى داره . ووقفت أولجا طويلا ناظرة الى السادة ، ورأت كيف عبرت عرباتهم النهر على المعدية، ثم كيف ساروا على المروج الى أن وصلوا الى عربة كبيرة كانت فى انتظارهم هنـــــاك . ولما عادت الى المنزل أخذت تقص على نيكولاى بانبهار :

ـ كم كان منظرهم جميلا ! كم هم طيبون ! والبنتان كملائكة الخير !

فقالت فيكلا ـ التى كانت تغالب النعاس . بغضب:

ـ فليذهبوا الى الجحيم !

- ٦ -

كانت ماريا تعتبر نفسها تعسة وكانت تتمنى الموت. ولكن هذه الحياة ـ بفقرها وقذارتها وسبابهـــا البذىء ـ كانت تروق لفيكلا ، فكانت تأكل كل ما يقدم لها ، وتنام فى أى مكان وعلى أى شىء ، وكانت تدلق الماء القذر الملىء

بالنفايات أمام باب البيت رأسا بل وتسير عليه بقدميها الحافيتين ، وقد كرهت أولجا ونيكولاى من أول يوم لان هذه الحياة لم ترق لهما . وكانت تقول لهما بغيظ :

ـ سنرى ماذا ستأكلون هنا يانبـــلاء موســكو ! سنرى !

وفى أحد أيام سبتمبر ، صـــباحا ، احضرت فيكلا دلوين مليئين بالماء من النهر وكانت متـــوردة الخدين من البرد ، وتظهر عليها آثار الصحة والجمال . ولما دخلت البيت رأت أولجا وماريا جالســـتين الى المائدة تشربان الشاى ، فقالت لهما بتهكم :

ـ شاى وسكر ! يا للسيدات المحترمات ! يا للنظام الجديد : يوميا تشربان الشاى . احترســـا والا اصبحتما بانتفاخ من كثرة الشاى . وأضافت ناظرة بكره الى أولجا :

ـ امتلأت أصداغك أثر حياتك فى موســـكو ـ يا غليظة !

ثم ضربت أولجا على كتفها بالعصا التى كانت تحمل عليها الدلوين ، فأخذت المرأتان وصارتا ترددان :

« يا الهى ! يا الهى ! »

ثم توجهت فيكلا الى شاطىء النهر لغسل الثياب ، وأخذت تسب طوال الطريق بصوت مرتفع مسموع فى البيت .

غربت الشمس وبدأ ليل طويل من ليالى الخريف ، وفى المنزل أخذ الجميـــع ـ ما عدا فيكلا التى توجهت الى الشـــــاطىء الآخر ـ يغزلون الحرير ، الذى يأخذونه من المصنع المجاور للقرية ، وكان ذلك يجلب لهم دخلا اسبوعيا حوالى عشرين كوبيكا .

وأخذ العجوز يتحدث أثناء العمل قائلا :

لقد كان الحال أفضل بكثير أيام القنانة ، كان العمل والأكل والنوم بنظام ، على الغذاء يعطونك الشوربة والأرز وعلى العشاء أيضا شوربة وأرزا ، أما الخيار والكرنب فدون حساب . على حريتك ، تأكل منها كما تشتهى نفسك . وكان النظام أكثر جدية كل يعرف حدوده ..

كان المصباح الوحيد يدخن ويضىء المكان اضـــاءة ضعيفة . واذا حجب أحدهم ضوء المصباح بحيث يقع الظل على النافذة كان ضوء القمر يرى بوضوح ، وكان العجوز أوسيب يحكى ببطء عن الحياة قبل الغاء القنانة : كيف كان السادة يخرجون للصيد بخيلهم وكلابهم المدربة ، ويملئون هذه الأماكن الفقيرة المملة بالمرح والحيـــاة ، فعند توقفهم للراحة فى القرى يسقون اللاحين الفودكا ، وكيف كانت العربات المحملة بالصيد الوفير ترسل الى موسكو للسادة الصغار ، وكيف كان المذنب يعاقب بالجلد والنفى وكيف كان الطيب يكافأ .

كما قصت الجدة ـ التى تتمتع بذاكرة طيبة ـ بعض ذكرياتها ، فحكت عن سيدتها الطيبة المتدينة وزوجها اللاهى السكير وبناتها اللاتى تزوجن زيجات سيئة : واحدة تزوجت بسكير والأخرى بفقير والثالثة هربت (ولقد ساعدتها الجدة ـ التى كانت شابة صغيرة عندئذ ـ فى الهرب) ثم كيف قتلهن الحزن سريعا مثلما قتل أمهن . وأبكتها هذه الذكريات .

وفجأة طرق الباب ، فانتفض الجميع ، وجاء صوت من خلف الباب :

ـ أيها العم أوسيب . اسمح لى بقضاء الليل عندك !

ودخل عجوز صغير أصلع ، طاهى الجنرال جوكوف، نفس العجوز التى احترقت طاقيته . جلس وأخذ يسمع ثم بدأ هو الآخر يقص بعض ذكرياته . وكان نيكولاى جالسا على الفرن يستمع ويلقى باسئلته عن اصناف الطعام التى كانت تطهى للسادة ، ودار الحديث عن أنواع اللحوم والمرق والصلصات ، وأخذ الطاهى ـ الذى يتمتع كذلك بذاكرة طيبة ـ يذكر اسماء الأصناف التى لا تطهى حاليا، مثل صنف كان يطبخ من أعين العجول ويسمى ب :

« بعد أن تستيقظ . صباحا » ، وسأله نيكولاى :

ـ هل كنت تطهى الصنف المسمى ب « كوفتة المارشال » ؟

ـ لا ٠ فقال نيكولاى متهكما :

ـ ايه ٠ ياللطهاة !

أما الصغيرات فقد كن على الفرن جالسات او راقدات تنظرن الى أســـفل دون أن يغمض لهن جفن ٠ ويخيل الى المرء أن عددهن كبير جدا ٠ وكانت القصص تروق لهن فكن يتنهدن ويرتجفن وتصفر وجوههن من الانبهار والخوف ٠ وكن ينصتن الى الجدة ـ التى تقص اشـــيق من الجميع ـ بأنفاس محبوسة خائفين ان يحدثن أى حركة ٠

ثم بدأ الجميع ـ فى صمت ـ فى الاستعداد للنوم ٠ وأخذ العجـــائز الذين تأثروا بالقصص والذكريات تأثرا بالغا يفكرون بانبهار فى ان الشباب جميل ، ومهما كانت مشاكله فلا تتبقى منه الا الذكريات المليئة بالحياة والمرح٠ وشعروا كأن يدا باردة تعتصر قلوبهم عندما فكروا فى الموت الذى أصبح غير بعيد ٠٠ من الافضل الا يفكر المرء فيه !

انطفأ المصباح ، وصارت كل الأشياء ـ الظلام وضوء القمر فى النوافذ والهدوء ، وصرير المهد ـ تذكرهم بان العمر على وشك الانتهاء وان المرء لا يستطيع ان يرجعـــه ابدا ٠٠٠ واذا داعب النوم جفونك ونسيت ما يحيط بك اذ بأحد النائمين الى جوارك يلمس كتفك فجأة ، أو تضرب أنفاسه فى وجهك فيطير النوم من عينيك وتشعر بجسدك

كله ينمل ، وتتوارد على رأسك افكار سوداء عن الموت ، فاذا انقلبت على الجنب الآخر تنس الموت ولكن تمتلىء رأسك بالافكار القديمة المملة المعتادة عن الحاجة والفقر وعن علف البهائم وعن ارتفاع سعر الدقيق، وبعد قليل تصل بأفكارك الى أن حياتك قد انتهت ولن تستطيع ان تعيدها ...

وتنهد الطاهى : « أوه . يا الهى ! »

سمعت طرقة خفيفة جدا على النافذة ، لابد انها فيكلا قد عادت ، فقامت أولجا متثائبة ، متمتمة بالصلاة ، وفتحت الباب الداخلى ، ثم رفعت المزلاج عن الباب الخارجى وفتحته ، ولكن لم يدخل أحد بل هبت ريح باردة وملأ ضوء القمر المدخل ، ورأت أولجا الشارع الهادىء خاليا من المارة كما رأت القمر سابحا على صفحة السماء .

وقالت أولجا :

ـ من هنا . فجاء الرد :

ـ انا . ها أنا !

وبجوار الباب وقفت فيكلا ملتصقة بالجدار عارية تماما ، ترتجف وتصطك اسنانها من البرد فبدت تحت ضوء القمر اللامع بيضاء جميلة غريبة ، وكانت الظلال ولمعان جسدها تحت ضوء القمر أول ما يسترعى الانتباه، كما ظهرت جيدا حواجبها السوداء وصدرها النافر .

وقالت فيكلا :

ـ لقد نزع عنى الشبان على الضفة الأخرى كل ثيابى وتركونى هكذا ... وجئت الى هنا بغير ملابس ... كما ولدتنى أمى . احضرى لى شيئا ألبسه !

فقالت لها أولجا التى بدأت ترتجف هى الآخرى :

ـ فلتدخلى البيت !

ـ أخاف ان يرانى العجوزان .

وفعلا كانت الجدة قد قلقت وبدأت تتمتم كما سأل العجوز « من هناك ؟ » فأحضرت أولجا قميصها وجونلتها وألبست فيكلا ، ثم دخلتا معا بهدوء وأقفلتا الباب باحتراس حتى لا يسمع له صرير . وقالت الجدة بغضب بعد أن تعرفت على فيكلا :

ـ أأنت يا جميلة ؟ الا تهمدين يا سيدة نصف الليل؟ ... ألا تأخذك مصيبة ؟

فتمتمت أولجا وهى تغطى فيكلا :

ـ معلهش ! معلهش يا عصفورتى .

ثم ساد الهدوء ثانية . ودائما كان نوم القوم قلقا ، فلكل من بالبيت شىء يضايقه ويمنع النوم عن عينيه : فالعجوز يقاسى من آلام فى ظهره ، والجدة مشغولة بمشاكل

البيت ، غاضبة دائما • والاطفال يشعرون بالجوع ولدغ الحشرات ، وكذلك هم الآن • كان الجميع يناموت نوما قلقا يتقلبون ويهذون وينهضون لشرب الماء •

وفجأة انفجرت فيكلا باكية بصوت مرتفع غليظ ، ولكنها سريعا ما حبست صوتها ، ولم يعد يسمع الا شهيقها الذى أصبح مكتوما وأكثر خفوتا الى أن هدأت تماما •

ومن وقت لآخر كانت دقات الساعة تأتى من الضفة الأخرى ولكنها كانت دقات غريبة ، فبعد أن دقت الخامسة دقت الثالثة !

وتنهد الطاهى قائلا : « أوه • يا الهى ! »

كان من الصعب أن تحكم بمجرد النظر الى النافذة هل طلع الفجر أم أن القمر هو الذى يضىء ؟ حين نهضت ماريا وخرجت لتحلب البقرة ، كان صوتها وهى تصرخ فى البقرة يصل الى آذان الراقدين ، كذلك خرجت الجدة، وكان الظلام لا يزال يخيم على البيت ومع ذلك بدأت معالم البيت تظهر •

ونزل نيكولاى ــ الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ــ من على الفرن ، وفتح صندوقه الأخضر وأخرج منه حلة الساقى وارتداها ثم اقترب من النافذة ونفض الغبار العالق بالكم وتحسس الياقة ــ وابتسم • ثم خلعها باحتراس وخبأها فى الصندوق وصعد على الفرن ثانية •

عادت ماريا وأخذت تحمى الفرن ، ويبدو أنهـا لم تستيقظ تماما بعد ، ولكنها بدأت تستيقظ الآن وهى تعمل وغالبـا كانت تحلم بشىء ما أو تذكرت حديث الأمس اذ انها تمطت بلذة أمام الفرن وقالت :

ـ لا · ان الحرية افضل من عهد القنانة ·

- ٧ -

جاء السيد · هكذا كان اهل القرية يسمون محضر المدينة · وكان أهل القرية يعرفون موعد وسبب حضوره قبل ان يحضر باسـبوع · ولم يكن فى قرية جوكوفو الا اربعون بيتا فقط ولكن تراكمت عليها ضرائب وعجز فى السداد للسادة اصحاب الارض تربو قيمته على ألفى روبل ·

توقف المحضر فى الحانة حيث تناول «حضرته» كوبين من الشاى ثم توجه سائرا الى بيت العمدة حيث تجمع هناك كل المدينين · كان العمدة شابا فى حوالى الثلاثين الا انه كان صارما ، يأخذ جانب الحكومة دائما بالرغم من أنه كان فقيرا ومدينا هو الآخر ، ويبدو أنه كان معجبا بعمودیته ، يروق له الشعور بالسلطان ولا يعرف طريقا آخر لاظهاره الا الصرامة · وكان الجميع ينصـتون له اذا تكلم فى

الاجتماعات ويخافونه • وكثيرا ما كان يهجم على أحد المخمورين بالقرب من الحانة ويوثق يديه ويعتقله لمدة يوم أو اثنين فى غرفة المقبوض عليهم • ولقد تحفظ على الجدة ليلة كاملة ذلك عندما حضرت مرة اجتماعا بدلا من العجوز أوسيب أو أخذت تسب بعض الحاضرين •

لم يستوطن العمدة المدينة ابدا ، ولم يقرأ كتابا ومع ذلك تعلم بعض الكلمات والعبارات الذكية التى كان دائما يستعملها فى حديثه مما جعل الفلاحين يحترمونه بالرغم من انهم كثيرا ما كانوا لا يفهمونه •

دخل اوسيب ـ حاملا دفتر حساباته ـ بيت العمدة حيث يجلس المحضر يقيد الحسابات فى الدفتر العمومى• كان المحضر رجلا كبير السن ، نحيفا ، أبيض الشعر ، مرتديا معطفا رمادى اللون • وكان المنزل نظيفا والجدران مزينة بالصور المقصوصة من المجلات الملونة، وفى أهم ركن بجوار الايقونة علقت صورة للأمير باتنبرج أحد أمراء بلغاريا السابقين ، وبجوار المائدة وقف العمدة انتيب سيد لنكوف عاقدا يديه على صدره ، وقال للمحضر عندما جاء دور أوسيب :

ـ انه ـ يا سيدى المحترم ـ مدين بمائة وعشرين روبلا • لقد دفع آخر مرة روبلا وذلك قبيل عيد القيامة ، ومن يومها لم يدفع كوبيكا واحدا •

فرفع المحضر عينيه الى أوسيب وسأله :

ـ لماذا يا أخينا ؟ فأجاب اوسيب متوترا :

ـأرجو من سيادتكم ان تنظر الى بعين الرحمة الالهية. اسمح لى أن أشرح الأمر . فى الصيف الماضى قال لى المالك صاحب الارض « بع يا أوسيب ما عندك من التبن .. بع » ولم لا ؟ كان عندى حوالى مائة حمل للبيع كانت النسوة قد حصدتها ، حسنا . بدأت الفصال للبيع ... ولكن كل شىء يسير على مايرام ، بمحض الارادة ...

وأخذ يشكو من العمدة متوجها الى بقية الفلاحين كمن يطلب منهم أن يشهدوا على قوله ، واحمر وجهه ونضح منه العرق وأصبحت عيناه حادتين غاضبتين .

فقاطعه المحضر قائلا :

ـ أنا لا أفهم لم تتحدث عن هذا . أنا أسألك .. أنا أتوجه اليك بالسؤال لماذا لا تدفع ما عليك ؟ أنتم لا تدفعون وأنا المسئول !

ـ لا أستطيع أن أدفع !

فقال العمدة :

ـ كل هذه الكلمات كما ترون سيادتكم دون نتيجة صحيح ان آل تشيكلديف من الفئة التى لاتتمتع بالكفاية،

ولكن اسمح لى أن أسأل الباقين عن السبب فى عدم السداد
السبب كله ـ الفودكا وحب اللهو دون أى تقدير سليم ٠

كتب المحضر بضع كلمات فى دفتره وقال لأوسيب بهدوء وبلهجة عادية كمن يطلب مثلا كوبا من الماء :

ـ اذهب الى الشيطان !

وسريعا ما غادر المحضر القرية ٠ جلس فى عربته وسعل واذا نظرت حتى الى ظهره الطويل النحيف لفهمت انه لم يعد يذكر شيئا عن أوسيب ، أو عن العمدة ، أو عن القرية كلها بل لا بد انه يفكر فى شىء خاص به ٠

وبعد قليل كان أنتيب سيد لنكوف يخرج من بيت آل تشيكلد ييف حاملا السموار وتجرى الجدة وراءه صارخة بصوت حاد بأقصى ما تستطيع من قوة قائلة :

ـ لن أعطيه لك ! لن أعطيه لك يا ملعون !

وكان العمدة يسير مسرعا بخطوات واسعة والجدة تتبعه لاهثة ، منحنية الظهر ، تتعثر ، فى أقصى درجات الغضب ، وقع منديلها على كتفيها ، يتطاير شعرها الأشيب مع الريح ، وفجأة توقفت وأخذت تدق على صدرها بثورة عارمة وتصرخ بأعلى صوت وبلهجة منغمة ، مولولة :

ـ أيها المسيحيون ٠ يا من تؤمنون بالمسيح ! أغيثونى! أغيثونى أيهـــا الطيبون ! جاى ٠٠ جاى ٠٠ دافعوا عنى يا أحبائى !

فقال لها العمدة بلهجة صارمة :

ــ أيتها الجدة ، ثوبى الى رشدك !

وأصبح الملل يسيطر تماما على بيت آل تشيكلد ييف بعد فترة السموار • لقد كان فى نزع السموار شيء محقر ، كما لو أن المنزل قد فقد كرامته • كان من الأفضــل لو أن العمدة أخذ المنضـــدة وكل الأرائك وكل الأوانى فلم يكن ليبدو البيت خاليا مثل ما يبدو الآن • أخذت الجدة تصرخ وماريا تبكى فبكت البنات لبكائها وداخل العجوز احساس بالذنب فجلس صامتا خافضا رأسه ، كما صمت نيكولاى الذى كانت الجدة تحبه وتعطف عليه ، أما الآن فقد فقدت الشعور بالعطف وهجمت عليه تسبه وتعنفه ضاربة الهواء بقبضتها تحت أنفه تماما ، وأخذت تصرخ انه هو المذنب والمسئول عن كل المصائب ، وفعلا لماذا كان يرسل أقــل القليل من المال عندما كان يتفاخر بنفسه فى خطاباته بأنه كان يحصل فى « سلافيانسكى بازار » على خمسين روبلا فى الشهر ؟ ولماذا أقدم الى هنا بل بصحبة عائلته ؟ واذا مات فبأى نقود سيدفن ؟ •• حينئذ صار منظر نيكولاى وأولجا وساشا فى منتهى البؤس •

فسعل العجوز وأخذ طاقيته وتوجه الى العمدة • كان الظلام قد خيم ، وجلس أنتيب سيد لنكوف بجوار الفرن مشغولا بلحام بعض الاشياء المعدنية ، نافخا الهواء بفمه ، وكان جو البيت حارا خانقا ، وجلس أطفاله النحاف ذوو

الوجوه القذرة– الذين لايتميزون عن أطفال آل تشيكلديف – يلعبون على الأرض ، وكانت زوجته الحامل ، الغير جميلة، التي يمتلىء وجهها بالنمش ، تغزل الحرير •

وعلى الأريكة رصت خمس سموارات • رسم أوسيب علامة الصليب أمام صورة الأمير باتنبرج ثم قال :

– انتيب • اظهر من عنـدك رحمـة الهية • اعطني السموار • بحق المسيح !

– اذا أحضرت ثلاثة روبلات أخذت السموار •

لا أستطيع !

واصل انتيب النفخ ففحت النيران وانعكس ضياؤها على أسطح السموارات ، وأخذ العجوز يقلب طاقيته بين يديه وفكر قليلا ثم قال :

– اعطنيه !

نظر اليه العمدة وكان وجهه مغطى بالسناج فانقلب سماره الى سواد وأصبح منظره أشبه بالسحرة وقال بسرعة وصرامة :

– الأمر الآن يتعلق بمجلس المحافظة ، وتستطيع أن تتوجه بشكواك الى اللجنة الادارية التي ستنعقد في السادس والعشرين من الشهر الحالي شفويا أو كتابة •

ولم يفهم أوسيب شيئا ولكنه اقتنع وعاد الى البيت •

وبعد عشرة أيام حضر المحضر ثانية حيث قضى في القرية حوالي ساعة وذهب • وفي هذه الأيام كان الجو باردا

والريح تهب باستمرار ، وتجمد النهر مع ان الثلج لم يبدأ في التساقط بعد ، لذا كانت الطرق غير صالحة . وفى أحد الأعياد الدينية جاء بعض الجيران الى أوسيب مساء للزيارة وتبادل الحديث ، وكانوا يجلسون فى الظلام لأن القيام بأى عمل فى العيد حرام لذا لم يضيئوا المصباح ، وتبادلوا بعض الأخبار المحزنة ، مثل ان الحكومة استولت على الدواجن من بيتين أو ثلاثة تحصيلا للديون ، ونفقت الدواجن فى الطريق الى المدينة لأن أحدا لم يطعمها . كما استولوا على بعض النعاج التى ماتت احداها عندما كانوا ينقلونها من عربة لأخرى فى احدى القرى ، وأخذ المجتمعون يناقشون مسألة: من المذنب ؟ فقال أوسيب :

ـ المحافظة ! من غيرها ؟

ـ طبعا المحافظة .

كانوا يدينون المحافظة فى كل المصائب ـ فى الديون وفى المشاكل وفى قلة المحصول ، مع ان أحدا منهم لايفهم ماذا تعنى كلمة محافظة .

وقد أخذ الفلاحون هذه العادة ـ عادة سب المحافظة ـ عن أغنياء الفلاحين وعن التجار وأصحاب الحوانيت والورش والحانات الذين زاروا مجالس المحافظة ولم يرق لهم ما وجدوه من معاملة فأخذوا يسبون المحافظة فى حوانيتهم ومقاهيهم أمام الفلاحين .

كما دار الحديث عن ان الله لم يسمح بسقوط الثلج

بعد وبذلك لا يستطيعون نقل الاخشاب على الزحافات • وقبـلا من حوالى خمسة عشر أو عشرين عاما كان حديث العجائز فى جوكوفو شيقا • فكان حديثهـم عادة مسربلا بالأسرار مليئا بالاشارات المبهمة والتوقيعات والتكهنـات المختلفة ، أما الآن فلم تكن هناك عند أحد منهم أى أسرار بل كانت حياة كل منهم مكشوفة كالكف المفتوح ، والحديث يدور عن الحاجة وعن قلة علف البهائم وعن أن الثلج لم يتساقط بعد •••

وخيم الصمت قليـــلا ثم تذكروا الدواجن والنعاج وأخذوا يناقشون مسألة من المذنب ؟ وقال أوسيب بملل ورتابة :

ـ المحافظة ! من غيرها ؟

- ٨ -

كانت هناك كنيسة كبيرة تقع على بعد ستة فراسخ من القرية ، فى كوسجروف • ولم يكن أهل القرية يزورونها الا عند الحاجة : لتعميد الأطفال أو لعقد قران أو لصلاة أعياد الفطر ، وكانوا عادة يصلون فى الكنيسة الصغيرة التى تقع على الضفة الاخرى من النهر • وفى الأعياد اذا كان الجـو معتدلا ترى البنات بمناديلهن الزاهية الحمراء والصـفراء والخضراء تعبرن المروج فى طريقهن الى الكنيسة ، ويلتزم

الجميع منازلهم اذا كان الجو سيئا • وفى نهاية الصوم كانوا يتناولون في الكنيسة • وفي عيد القيامة يمر القسيس على البيــوت حاملا الصليب ويحصل خمسة عشر كوبيكا ممن لم يحضر للتناول في الكنيسة بعد الصيام الكبير •

كان العجوز لا يؤمن بالله لأنه لم يفكر في هــذا الموضوع أبدا • صحيح انه يؤمن بوجود قوى خارقة ولكنه يعتقد ان ذلك الأمر يخص النســوة فقط ، واذا ما دار الحديث أمامه عن الدين أو عن المعجزات وتوجه اليه أحــد بسؤال ما كان يجيب دون رغبة حاكا شعر رأسه :

ـ ومن أين لأحد أن يعرف ؟!

أما الجدة فكانت تؤمن ايمانا ضعيفا ولقد كان الامر مختلطا في رأسها ، فاذا ما بدأت فى التفكير فى الذنوب والموت والعقاب استولت مشاكل الحاجة والفقر على تفكيرها لتنسيها فى الحال ما كانت تفكر فيه • ولم تكن تحفظ أى صلوات، وعادة مساء قبل النوم تقف أمام الأيقونة وتتمتم:

ـ سلام لعذراء كازانسك ، وعذراء ســمولنسك ، وعذراء ترويرتشتس (١) •••

وكانت ماريا وفيكلا ترسمان علامة الصليب وتصومان كل عام بلا أى فهم ولم يعلم أحد الاطفال الصلاة أو أى قواعد دينية ولم يكلمهــم أحد عن الله ، بل كانوا فقط

---

(١) أسماء ثلاث كاتدرائيات مشهورة فى مدن روسيا الكبرى •

يمنعونهم من أكل ما يفطر وقت الصيام • وهكذا كان الحال في بقية أسر الفلاحين : كان المؤمنون قلة والفاهمون أقل • وفي نفس الوقت كان الجميع يحبون الكتاب المقدس حبا جما ولم يكن أحد يملك انجيلا ، ولم يكن أحد يقرأ أو يوضح لهم الآيات لذا كان الجميع يحترمون أولجا لأنها تقرأ الكتاب المقدس ويتكلمون معها ومع ساشا بكل احترام •

وفي الأعياد الدينية كثيرا ما كانت أولجا تزور كنائس القرى المجاورة وتزور أيضا مدينة المركز حيث توجد سبع وعشرون كنيسة •• وكان تفكيرها عادة مشوشا فعندما تكون في الكنيسة تصلي تنسى أن لها أسرة ، وفي البيت عندما تعود تكتشف بفرح ان لها زوجا وطفلة فتقول والسعادة تضيء وجهها :

ـ لقد أعطاني الرب ما يسعدني !

وكانت تشعر بالقرف والعذاب مما يجري في القرية كان الفلاحون يشربون في يوم عيد النبي الياس وفي عيد العذراء وفي عيد رفع الصليب •• وبمناسبة عيد مولد قديس الكنيسة المحلية شرب الفلاحون ثلاثة أيام متوالية سويا فصرفوا على ذلك خمسين روبلا من صندوق القرية ثم أخذوا يجمعون نقودا أخرى من كل البيوت لمواصلة شرب الفودكا • وذبح آل تشيكلدييف خروفا في أول أيام العيد وصاروا يأكلون من لحمه صباحا وفي الغداء وفي العشاء ، بل صار الاطفال يستيقظون ليلا ليأكلوا، وطوال أيام العيد

الثلاثة كان كرياك مخمورا لدرجة رهيبة ، وباع كل مايملك ليشرب به فودكا ، حتى لقد باع طاقيته وحذاءه ، وكان يضرب ماريا لدرجة انهم كانوا يصبون عليهـــا الماء لتفيق وبعد العيد كان الجميع يشعرون بالخجل والغثيان .

وبالمناسبة ، فى هذا العام عاشت القرية مرة عيـــدا دينيا حقيقيا ، كان ذلك فى أغسطس عندما كان رجال الدين يمرون على القرى حاملين احدى الأيقونات الشهيرة ، ويوم انتظرت القرية زيارة الأيقونه كان الجو هادئا والســـحب تغطى السماء ، ومن الصـــباح الباكر توجهت الفتيـــات بمناديلهن ذات الألوان الزاهية لمقابلة الأيقونة حيث وصلت مساء وحولها مسيرة صليبية تردد التراتيل الدينية ، وفى نفس الوقت دقت أجراس الكنيسة ــ التى وراء النهر ــ ثلاثا وسد جمع من فلاحى القرية والقرى المجاورة الشـــارع ، وتصاعد الضجيج وثارت الأتربة وازداد الزحام ..

وخرج العجوز والجدة وكرياك وأيديهم ممدودة تجاه الأيقونة ، ونظروا اليها بنهم وأخذوا يكررون باكين :

ــ أيتها العذراء الرحيمة ! امنا الرحيمة !

وكما لو أدرك الجميع فجأة أنه لا فراغ بين الأرض والسماء ، وان الأغنياء والأقوياء لم يستولوا بعـــد على كل شيء ، وأن هناك حماية من المصائب وحياة العبودية ومن الحاجة والفقر المدقع الغير محتمل ومن الفودكا الرهيبة .

وكانت ماريا تصرخ باكية :

ـ يا أمنا الرحيمة ! يا أمنا ! ..

ولكن بعد أن انتهت الصــــلاة وذهبوا بالأيقونة عاد كل شيء لحالته القديمة ، وها هي الأصوات المخمورة الفظة تتصاعد ثانية من الحانة ...

لم يكن يخاف الموت الا أغنياء الفلاحين الذين كلما ازدادت أموالهم كلما قل ايمانهم بالله وبخلاص الروح ،ولكن لخوفهم من الفناء ، وعلى أى حال ـ كانوا يزورون الكنيسة للصلاة ووضع الشموع .

أما الفلاحون الفقراء فلا يخــافون الموت ، ولم يكن العجوز أو الجدة يغضبان اذا قال لهما أحد انهما قد كبرا وحان أجلهما ، ولم يكن أحد يشعر بالخجل من أن يقول لفيكلا أمام نيكولاى انه عندما سيموت الأخير ســيعافى زوجها دينيس من الجندية وسيعود الى بيته . أما ماريا فلم تكن فقط لا تخاف الموت بل كانت تحزن من أن الموت يتأخر هكذا ، وعادة تفرح جدا عندما يموت أحد أطفالها .

ومع انهم لا يخافون الموت الا أنهم ينظرون للمرض برعب حقيقى ، فاذا شعرت الجدة بأقل توعك ـ عسر هضم أو رعشة خفيفة مثلا ترقد على الفرن فى الحال ثم تأخــذ فى التأوه المستمر بصوت عال .. آه . أنى أموت ! فيسرع العجوز باحضار القسيس .

وكثيرا ما يدور الحديث عن نزلات البرد ، وعن ديدان البطن ، وعن الثعابين التى تتجول فى الامعاء وتصعد الى

القلب فتخنقه ، ولكن نزلات البرد كانت اكثر ما يخيفهم ، لذا فانهم يرتدون ثيابا ثقيلة ويتدفئون حوم الفرن حتى فى الصيف ، وكانت الجدة تحب العــلاج وكثيرا ما كانت تذهب الى المستشفى حيث تذكر ان عمرها ثمانية وخمسون عاما ، لا سبعون ، لانها تخاف من‌ان الطبيب اذا علم عمرها الحقيقي لن يعالجها بل سيقول لها ان من الواجب عليها ان تموت لا أن تعالج ، وكانت عادة تغادر القرية الى المستشفى فى الصباح الباكر مصطحبة معها طفلتين أو ثلاثا ، وتعود في المساء جوعانة غاضبة ومعها بعض النقط لنفسها وبعض المراهم للاطفال • وصحبت معها مرة نيكولاى الذى صار يتناول لمدة اسبوعين نقطا ما ويقول انه يشعر بتحسن •

كانت الجدة تعرف كل الاطباء والتمرجيين فى القرى والمدن الواقعة حـــول جوكوفو فى حدود مســافة ثلاثين فرســخا ولم يرق لها أحد منهم • وعندما مرت الأيقونة الشــهيرة على القــرية فى اغســطس الماضى اخبرها أحــد القساوسة عن تمرجى جديد ، كان يعمل قبلا فى الجيش • ونصحها بزيارته • فاطاعت الجدة النصيحة وعندما تساقط أول ثلج توجهت الى‌المدينة واحضرته، وكان عجوزا ملتحيا، وجهه مغطى بالعروق الزرقاء • فى هذا الوقت كان بالمنزل ترزى عجوز ذو نظارات مخيفة يقص صــديريا من بقــايا قماش قديم ، ومعه صبيان يصنعان من بقــايا الصــوف اخفافا شتوية ، كمــا جلس كرياك ـ الذى طرد من عمله لسكره الدائم ـ يصلح سلسلة حديدية ، لذا كان البيت

مزدحما والجو خانقا عطنا ، وبعد ان فحص التمرجي نيكولاى قال انه لا بد من وضع كاسات هواء ·
واثناء وضع كاسات الهواء وقف الترزى العجوز وكرياك والبنات ينظرون ، وخيل لهم انهم يرون كيف يخرج المرض من جسم نيكولاى ، ورأى نيكولاى ايضا كيف تلتصق الكاسات بصدره ، وكيف تمتلىء ببطء بدم قاتم اللون ، وشعر فعلا بأن شيئا ما يخرج منه فصار يبتسم فرحا راضيا · وقال الترزى :
ـ هذا حسن ، جعل الله فى هذا الشفاء ·
وضع التمرجي اثنتى عشرة كأسا ثم اثنتىعشرة أخرى ثم ارتوى بالشاى وذهب · وأخذ نيكولاى يرتجف ، وصار لون وجهه رماديا ـ وكما قالت النسوة ـ انكمش وجهه واصبح كقبضة اليد ، وازرقت اصابعه · تغطى ببطانية ومعطف ولكن شعوره بالبرودة اخذ في الازدياد · وفى المساء داخله شعور بالقلق والضيق ، وطلب ان ينزلوه من على الفرن ثم طلب من الترزى ان يكف عن التدخين، واخيرا هدأ تحت البطانية ، وقبيل الفجر مات ·

- ٩ -

أوه ·· يا له من شتاء قاس طويل !
لقد فرغ القمح من البيت قبل عيد الميلاد وبدأوا فى شراء الدقيق ، وكان كرياك ـ الذى أصبح يعيش الآن فى

المنزل – يثور كل مساء ويملأ قلوب الجميع بالرعب ، ثم يتعذب في الصباح من الصداع والخجل لدرجة تثير الشفقة، وكانت البقرة في الحظيرة تخور صباحا ومساء من الجوع مما يقطع قلب الجدة وماريا . كان الشتاء قارس البرد ، والثلج يتساقط بكثرة واستمرار . وامتد الشتاء ، ففي عيد البشارة هب اعصار شتوى حقيقي وفي عيد القيامة تساقط الثلج . ولكن ها هو الشتاء ينتهي ففي أوائل ابريل كان النهار دفئا والليل باردا . الشتاء يتراجع . ولكن ها قد انتصر نهار دافيء وأخيرا ذاب الجليد وزقزقت العصافير ، وغطت المياه المروج ، وأصبح الفراغ الواقع بين جوكوثو وبين القرية التي على الجانب الاخر من النهر كخليج ضخم ، يطير البط البرى على صفحته ، وكان الغروب الملتهب ، ذو السحب المنتفخة يعطي كل مساء شيئا غير عادى ، جديدا ، غير معقول. يعطي هذا المنظر الذى لاتصدقه عندما ترى نفس السحب ونفس الألوان مرسومة على لوحة .

وكانت اللقالق تطير بسرعة كبيرة وتصرخ كالحزينة كما لو انها تدعوك أن تصاحبها ، وكانت أولجا تقف طويلا على الشاطيء تنظر الى المياه ، والى الشمس ، والى الكنيسة التي كما لو انها استعادت شبابها ، وتنهمر الدموع من عينيها ، وتنحبس أنفاسها ، وتشعر برغبة عارمة في أن تذهب الى بعيد حتى الى آخر العالم ، وكانت قد قررت أن تعود الى موسكو لتعمل كخادمة وأن تصحب معها كرياك

ليعمل كبواب أو فى أى عمل آخر · آه لابد من الاسراع فى الذهاب ·

فلما جفت الطـرق وأصبح الجـو دافئا استعدت للرحيل · خرجت أولجا وساشا فى الفجر وعلى ظهر كل منهمـا صرة · وخرجت ماريا لتوصلهمـا ، وكان كرياك مريضـا فقرر البقاء أسبـوعا آخر · رسمت أولجا عـلامة الصليب ناظرة للمرة الأخيرة الى الكنيسة ، وتذكرت زوجها فلم تبك بل تغضن وجههـا وصار غير جميل مثـل وجه العجائز ، لقد تغيرت كثيرا عما كانت قبل الشتاء · نحف جسـدها وساء منظرها وابيض شعرها قليلا ، وبدلا من الابتسامة اللطيفة التى كانت تضىء وجهها ، صار على وجهها تعبير خنوع وحزن وظهر فى نظرتها شىء من الغباء والسكون كما لو أنها أصبحت صماء · وكانت تشعر بالحزن لمغادرة القرية والفلاحين ، وتذكرت كيف حملوا نيـكولاى ميتا ، يتوقفون عند كل منزل للوداع ، وكيف كان الجميع يبكون يشاركونها الحزن · وخلال الصيف والشتاء التى قضتها فى القرية كثيرا ما كانت تفكر أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ من البهائم وكانت الحياة بينهم مخيفة : فهم أفظاظ ، غير شرفاء ، أقذار ، مخمورون ، يعيشـون بلا وفاق ، دائمو العـراك ، لذا فان كلا منهم لا يحترم الآخـر ويخاف منه ويشـك فيه · من الذى يفتح الحانة ويسـكر الفلاحين ؟ فلاح · من الذى يصرف النقود العامة والمدرسية والكنائسية ويبعثرها على الخمر ؟ الفلاح · من الذى يسرق جاره ويحرق

محصـــوله ويشهد ضـــده شهادة زور من أجل زجاجة من الفودكا ؟ من أول من يتكلم فى الاجتماعات ضد الفلاح ؟ الفلاح • فعلا ان الحياة بينهم مخيفة ولكنهم آدميون يتعذبون ويبـــكون كبقية الآدميين ، ولا يوجـــد شىء سيىء فى حياتهم الا وله مسببات ، العمل المضنى الذى يملأ كل الجسد بالآلام ليلا ، الشتاء القاسى ، المحصول القليل ، الزحام فى البيوت • ولا خلاص من ذلك ولا مساعدة ، ولا يوجد من ينتظر منـــه الخلاص والمساعدة • الفـلاح الأغنى والأقوى لا يساعدهم لانه هو أيضا فظ ، غير شريف ، مخمور ، ويسب بنفس البذاءة • ان أصغر موظف أو أى خولى يعامل الفلاح معاملته للشحاذ ويكلم عجائزهم وكبارهم بلا أدنى احترام • ويظن انه يملك الحق فى ذلك • وهل يمكن أن ينتظر المرء المساعدة أو المثل الطيب من الأنانيين، الطماعين، الشواذ ، الكسالى الذين يجيئون الى القرية فقط ليحقروا ويسرقوا ويخدعوا ويرهبوا الفلاح ؟ وتذكرت أولجا منظر عجـائز الفلاحين المستضعفين عندما قيد كرياك فى الشتاء الماضى ليعاقب بالجلد ••• وامتلأت روحها بالألم والشفقة تجـاه هؤلاء الناس ، وصارت طول الطـريق تلتفت الى بيوتهم •

وبعد أن رافقتهما ماريا لمسافة ثلاثة فراسخ توقفت لتودعهما • ثم ركعت على ركبتيها وولولت واضعة رأسها على الأرض •

ـ ها أنا وحدى ثانية •• يا لى من تعسة ! يا لى من مسكينة !

وصارت تولول لمدة طويلة وكلما التفتت أولجا رأتها راكعة على ركبتيها ممسكة رأسها بيديها والغربان تحوم حولها ٠

وارتفعت الشمس الى كبد السماء ، وصار الجو حارا ، واختفت قرية جوكوثو تماما ٠ ولكن السير يخفف عن أولجا وساشا ، وسريعا ما نسيتا القرية وماريا ، وصارتا مرحتين ، وكان كل ما ترياه في الطريق يطربهما ٠ ها هو تل صغير ٠ وها هو طابور من أعمدة التلغراف كل عمود وراء الآخر متجهين وجهة غير معلومة ثم يختفي في الأفق ويسمع طنين غريب في الأسلاك الممدودة بينها ٠ وها هي عزبة صغيرة ترى من بعد وسط الخضرة ، يتصاعد منها الدخان ويخيل للمرأ - لسبب غير مفهوم - ان الحياة هناك سعيدة ٠ وها هو هيكل عظمي لحصان ٠ كانت العصافير تزقزق بلا انقطاع ، وتنادى القبرات بعضها البعض ، ويصرخ طير الدرجاتش كما لو كان أحدهم يجذبه من منقاره الطويل ٠

وعند الظهر وصلت أولجا وساشا الى قرية كبيرة ، وفي شارع واسع من شوارعها قابلتا العجوز طاهي الجنرال جوكوف ٠ ويبدو أنه كان يقاسي الحر بصلعته الحمراء التي ينضح منها العرق وتلمع تحت أشعة الشمس ٠ ولأول وهلة لم يتعرف أحدهما على الآخر ثم التفتا وعرفا بعضهما في نفس اللحظة وواصل كل طريقه دون تبادل أي كلمة ٠ واختارت أولجا منزلا يظهر عليه الغنى وتوقفت أمام نوافذه

المفتـــوحة ، وانحنت ثم قالت بصوت مرتفـــع رفيع : مغنية :

ـ أيها المسيحيون الطيبون · بحق رحمة المسيح · اعطونى شيئا من رحمتكم · رحم الرب موتاكم وأسكنهم سماواته !

وغنت ساشا :

ـ أيها المسيحيون الطيبون · اعطونا بحق المسيح · اعطونا شيئا من رحمتكم رحم الرب موتاكم ···

« تمت »

العنبر رقم ٦

شخصيات الرواية

ايفان ديمترتش جروموف	Ivan Dimitrich Gromov
أندريه يفيمتش راجين	Andrei Iefimich Ragin
ميخائيل أفريانتش	Michail Averianich
يفجيني فيودريتش خوبوتوف	Evgeniy Fiodorich Khobotov
نيكيتا	Nikita
موسيكا	Mosseika

- ١ -

في فناء المستشفى وفي وسط غابة صغيرة كثيفة من الشـجيرات والحشائش يقع مبنى صغير ذو سقف معدني صديء تخرج منه مدخنة قديمه مائلة ، سلماته الخشبيه معطنة ومغطاة بالحشائش وعلى واجهته بقايا من طلاء . وتطل تلك الواجهــة على المبنى الرئيسى للمستشفى أما مؤخرته فتطل على الحقل الذى يفصله عن المبنى ســور المستشفى الرمادى اللون ذو المسـامير ، ويكتسب المبنى بالسور ذى المســامير المقلوبة ذلك المنظر الكريه القاتم الخاص بكل مباني المستشفيات والسجون عندنا .

اذا لم تكن أشواك النباتات تخيفكم فلنتقدم سويا على هذا الطريق الضيق المؤدى لذلك المبنى لنرى مابداخله . فاذا فتحنا الباب الأول نجد أنفسنا في الفناء الداخلي حيث ترى بجوار الجدار وبجــوار الفـرن أكواما من مخلفات المستشفى : مراتب ومعاطف . وسراويل وقمصان قديمة وأحذية بالية لا تصلح لشيء . كل هذا مخلوط وملقى في كومة تتعفن وتتصاعد منها رائحة خانقة .

وغالبا ما يضطجع الحارس نيكيتا على هذه الكومة . غليونه في فمه ، وهو جندى مسرح بهتت شرائطه الحمراء ،

ذو وجه قاس مسن وحواجب كثيفة تضفي على وجهه سمة كلب البراري • وأنفه أحمـــر • وهو غير طويل • يوحي منظره بأنه نحيف ولكن عوده صلب وقبضاته قوية • وهو ينتمى الى تلك الطائفة من النـــاس التى تتسم بالطيبة والايجابية والطاعة والغباء • تلك الطائفة التى تحب النظام أكثر من حبها لأى شيء آخر فى العالم ، لذا فانهم مؤمنون بأنه من الضرورى استعمال الضرب معهم ، فهو يضربهم على الوجه وفى الصدر وعلى الظهر أو على أى مكان آخر وهو متأكد تماما أنه لا يمكن للنظام أن يستتب هنا بدون استعمال الضرب •

وبعدئد تدخلون الى غـــرفة كبيرة واسعة تشغل الجزء الأســاسى من المبنى ، جدرانهـــا ملطخة بطلاء قذر سماوى اللون • وسقفها مهبب ـ فمن الواضح أن الفرن يعمل ويدخن طول الشتاء وعندئذ يكون الجو فى الغرفة حارا ومشبعا برائحة الخشب المحروق • أما النوافذ فانها مشوهة من الداخل بقضبان حديدية والأرضية رمادية قذرة • وروائح الارنب المسلوق وفتيل المصباح المحترق والبق والنشادر تملأ جو الغرفة ، وفى الوهلة الأولى تذكرك هذه الروائح ببيت الوحوش فى حديقة الحيوان •

وعلى الأسرة المثبتة فى الأرض يجلس رجال مرتدون معاطف زرقاء وطواقى •• المجانين • عددهم خمسة • كلهم من الطبقة المتوسطة الا واحدا من أصل نبيل • أولهم من جهة الباب رجل من أبناء الطبقة المتوسطة ذو شارب

أحمر لامع وأعين دامعـــة · وهو يجلس واضعا ساقيه تحته · ينظر الى نقطة ثابتة · ليله ونهاره حزين يهز رأسه ويتنهد بعمق وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة مريرة · قليلا مايشترك فى الحديث وعادة لا يجيب على الأسئلة الموجهة اليه : يأكل ويشرب بطريقة ميكانيكية وفقط عندما يقدم اليه الطعام · ويدل سعاله المؤلم الحاد ونحافته وخدوده الموردة على أنه مسلول ·

وبعده يجلس عجـوز ضئيل الحجـــم جم الحيوية والحـــركة ذو ذقن مدبب وشـــعر أسود مجعد كشعر الزنجى · أثناء النهار يسير فى الغرفة من نافذة لأخرى أو يجلس على سريره على الطريقة التركية ودائما يصفر كطائر الثلج ويغنى متمتما ويقهقـــه · كما يظهر مرحه الطفولى وحيويته أيضا بالليـــل ، ذلك عندما يستيقظ ليصلى أو ليـدق بيديه على صـــدره أو لينقر على الباب بأصبعه · ذلك هو اليهودى موسيكا ، عبيط ، جن من عشرين عاما عندما أتت النيران على ورشته الصغيرة لصناعة الطواقى ·

وهو الوحيد من نزلاء عنبر نمرة ٦ الذى يسمح له بالخروج من المبنى بل والى خارج المستشفى · وهو متمتع بهذا الحق بصفته نزيل قديم ، وبصفته عبيط هادىء غير مؤذ ، وبصفته مضحك المدينة · وقد اعتاد أهل المدينة رؤيته فى الشوارع وسط ثلة من الأطفال والكلاب · وهو يمشى فى الشارع مرتديا معطف المستشفى وعلى رأسه

طاقيته المضحكة ، منتعلا حذاءه أو حافيا ، وأحيانا بدون سراويل ويقف أمام الحوانيت ليشحذ كوبيكا · أحيانا يعطونه كفاس (١) وأحيانا كسرة خبز وأحيانا كوبيكا · وهكذا يعود الى المستشفى عادة شبعا غنيا · ويستولى نيكيتا على كل مايحضره · يفعل الجندى ذلك بقسوة ، ويقلب جيوبه كلها ويشهد الله على أنه لن يسمح بعد هذه المرة قط بخروج اليهودى من المستشفى ويقسم بأنه يكره عدم النظام أكثر من أى شيء فى العالم ·

وموسيكا هذا خدوم ، فهو يقدم لزملائه الماء ويغطيهم وهم نيام ، ويعد بأنه سيحضر لكل منهم فى المرة القادمة كوبيكا وسيصنع لكل منهم طاقية جديدة ، كما أنه يطعم بالملعقة جاره المشلول الذى يقع سريره عن يساره · وهو لا يفعل ذلك بدافع الشفقة أو بشعور انسانى بل متأثرا بجروموف جاره من ناحية اليمين ، فهو يقلده ويطيعه ·

ايفان ديمترتش جروموف رجل فى الثالثة والثلاثين من عمره ، من أصل نبيل · كان محضرا ، وسكرتيرا فى المحافظة · وهو يقاسى من وهم بأنه مطلوب القبض عليه · يرقد على سريره ملتفا حول نفسه كحلقة أو يسير من ركن لآخر ، ونادرا مايجلس ، وهو دائما قلق مضطرب مشدود الأعصاب كما لو كان يتوقع حدوث شيء ما · ويكفى أى

---

(١) الكفاس : مشروب روسي وهو منقوع بذور نبات يشبه العرقسوس عندنا . (المترجم)

حفيف فى المدخل أو اى نداء فى الفناء الخارجى لان يرفع رأسه متصنتا : هل حضروا للقبض عليه ! هل يبحثون عنه ؟ وعندئذ يرتسم على وجهه تعبير قلق لا نهائى وقرف ٠

وانى لمعجب بوجهه العريض البارز العظام ، ذلك الوجه الدائم الشحوب والتعاسة ٠ ويعكس هذا الوجه كالمرآة روحه التى يعذبها الصراع والرعب الدائم ، وتعبيرات وجهه غريبة تدل على المرض ، ولكن قسماته الرقيقة ـ الدالة على العذاب العميق المخلص ـ قسمات عاقلة وراقية ، وفى عينيه بريق دافىء غير عليل ٠

وانى لمعجب به شخصيا ، فهو مؤدب ، خدوم ، مهذب فوق العادة مع الجميع الا مع نيكيتا ، فعندما يسقط من أحدهم زرار أو ملعقة نجده يهب من سريره ليلتقط ماوقع ويعطيه لصاحبه ، صباحا يرجو لرفاقه صباحا طيبا ومساء يتمنى لهم ليلة هادئة ٠

وبخلاف قلقه الدائم يظهر جنونه كالآتى : أحيانا فى المساء يلملم معطفه على جسمه ويبدأ فى السير من ركن لآخر مارا بين الأسرة ٠ ويرتجف جسمه كله وتصطك أسنانه كما لو كان يعانى حمى شديدة ٠ وفجأة يتوقف وينظر لرفاقه ٠ ومن الواضح أنه يرغب فى أن يقول لهم أشياء فى منتهى الأهمية ٠ ولكنه فى الغالب يظن أنهم لن يصغوا اليه أو لن يفهموه ، لذا يهز رأسه بشدة ونفاد صبر ويواصل خطواته ٠ ولكن أخيرا تتغلب رغبته فى

الكلام على أية اعتبارات أخرى . ويبدأ فى الكلام بحرارة .
وكلامه مشوش محموم يشبه الهذيان . غير انك تلمس
فى كلماته وصوته شيئا طيبا جدا . وعندما يتكلم تستطيع
ان تتعرف فيه على المجنون وعلى الانسان . ومن الصعوبة
بمكان أن تنقل الى الورق كلماته المجنونه . فهو يتكلم
عن نذالة البشريه وعن الاضطهاد . تلك النذالة وذلك
الاضطهاد اللذان يخنقان الحق . ويتكلم عن الحياة الرائعة
التى ستبنى على الارض بمرور الوقت . ويتكلم عن قضبان
النوافذ التى تذكره كل دقيقة بقسوة المضطهدين . وبذلك
يبدو حديثه أشبه بمقاطع غير منتظمة ومختلطه من ملاحم
قديمة ولكن لم تتم بعد .

- ٢ -

من اثنى عشر الى خمسة عشر عـــاما كان الموظف
جروموف يقطن فى منزله الخـــاص الواقع فى الشـــارع
الرئيسى بالمدينة . وكان جروموف هذا رجلا جادا محترما
فى بحبوحة من العيش . وكان له ولدان . سرجيى وايفان
وعندما كان سرجيى طالبا فى السنة الرابعة فى الجامعة
مرض بالسل الحاد وتوفى . وكما لو كانت هذه الوفاة
بداية لسلسلة من المصـــائب التى هطلت على عـــائلة

جروموف • فبعد أسبوع من وفاة سرجيي قبض على الاب العجوز • وحوكم بتهمة التزوير والاختلاس • وسريعا ماتوفى فى مستشفى السجن اثر تيفود • وبيع المنزل والمنقولات بالمراد • وهكذا أصبح ايفان ديمترتش وأمه بدون أى دخل •

وقبـــل وفاة الأب كان ايفان ديمترتش يعيش فى بطرسبرج حيث كان يدرس فى الجامعـــة • وكان والده يرسل له شهريا من ستين الى سبعين روبلا وبذلك لم تكن لديه أى فكرة عن الحاجة • أما الآن فكان عليه أن يغير حياته تغييرا جذريا • فأصبح مضطرا لأن يعطى دروسا خصوصية من الصباح الى المساء لقاء أجر زهيد ، وأن يعمل بالنسخ ومع ذلك كان يتضور جوعا لأنه كان يرسل كل الدخل الى والدته • ولم يتحمل ايفان ديمترتش هذه الحياة طويلا • فانهارت معنوياته وساءت صحته فترك الجامعة وعاد الى المدينة حيث حصل بالواسطة على وظيفة مدرس فى مدرسة المدينة ولكنه لم يستطع أن يتفاهم مع زملائه • ولم يعجب به التلاميذ فترك الوظيفة •• وتوفيت والدته • وعاش نصف سنة بدون عمـــل •• على الخبز والماء •• ثم عمل محضرا • وظل يشغل هذه الوظيفة الى أن طرد منها بسبب المرض •

ولم يكن يظهر أبدا بمظهر الانسان الصحيح حتى عندما كان شابا يدرس • فقد كان دائما شاحب اللون نحيفا وكثيرا ماكان يصاب بنزلات البرد وكان يأكل قليلا

وينام نوما مضطربا • وكانت رأسه تدور ويصاب بانهيار عصبى بعد كاس واحد من الخمر • وكان يحب ان يكون وسط الناس ولكن لكونه سريع الغضب ولدقته فى المعاملة لم يستطع ان يتقارب مع أحد ولم يكن له أصدقاء • وكان يتحدث عن أهل المدينه باحتقار ، ويقول أن جهلهم الحاد وحياتهم الحيوانية الخاملة تجعله يحس بالقرف والغثيان وكان يتكلم بصوت عال رفيع ، بحرارة ، وحتما اما بغضب وعدم رضا واما بتعجب وانبهار ودائما باخلاص • وأيا كان الحديث فهو دائما يرجعه لموضوع واحد : الحياة فى المدينة خانقة ومملة ، ولا يوجـــد عند الناس اهتمامات راقية ، بل يحيون حيـــاة قاتمة بدون معنى ويحاولون زخرفتهـا بالعنف والشـــذوذ • والمداهنة ، ان الأنذال شبعانون ومكسيون والشرفاء يقتـاتون بالكاد ، والحاجة ملحة الى مدرسة والى جريدة محلية ذات اتجاه شريف والى مسرح والى مكتبات عامة والى تكاتف المثقفين ، ان المجتمع فى حاجة الى أن يعى نفسه جيـــدا ليملأه الرعب • وفى مناقشته لأحوال الناس كان يضع اللونين الأبيض والأسود فقط ولا يستعمل مابينهما من ألوان ، فالانسانية عنده تنقسم الى شرفاء وأنذال ، لا وسط ، وكان يتكلم عن المرأة والحب بحرارة واندفاع ومع ذلك لم يعشق مرة •

وبالرغم من طبعه الحاد وعصبيته فقد كان محبوبا فى المدينة وكان أهلها يدللونه بـ « فانيا » ، فان رقته الموروثة ومعاملته الشريفة وأخلاقه العالية وحلته القديمة

ومظهره العليل ومصائبه العائلية جعلت الناس يشعرون نحوه بشعور طيب دافىء حزين • بالاضافة الى ذلك فلقد كان مثقفا ، قرأ كثيرا • أحيـــانا كان يجلس فى النادى تتخلل أصـــابعه بعصبية شـــعر لحيتـــه ويتصفح المجـــلات والكتب ، وعلى وجهه لا يرى تعبير من يقرأ بل من يبتلع الكلمـــات دون أن يمضغها ، ومن الممكن اعتبـــار القـــراءة احدى عاداته المرضية ، ذلك أنه كان يلتهم كل مايقع فى يده حتى اذا كان ذلك صحفا من العام السابق • أما فى بيته فكان يقرأ دائما مضطجعا •

- ٣ -

فى صباح يوم من أيام الخريف رفع ايفان ديمترتش ياقة معطفه وسار فى حوارى وأزقة المدينة القذرة متجها الى أحد الأهالى ليحصل منه أخذ وصولات المحكمة ، وكان مزاجه كعادته صباحا معتلا ، فقابل فى الطريق سجينين مقيدين فى حراسة أربعة من رجال الشرطة المسلحين • وقبلا ، كثيرا ماقابل ايفان ديمترتش سجناء ، وكانوا دائما يجعلونه يشعر بالعطف والحزن عليهم وباحساس مبهم بالذنب ، أما هذه المرة فقد داهمه احساس غريب غير عادى ، فلقد شعر لسبب ما فجأة بأنه من الممكن أن يقيد

ويقاد بهـذه الصورة خـلال هذه الطرقات القذرة الى السجن • وفى طريق العودة بجـوار مكتب البريد قابل أحد رجال الشرطة من معارفه ، فحياه الشرطى وسار معه عدة خطوات ، فخيل له أن ذلك أمر داع للشك • وطول اليوم أثناء وجوده بالمنزل لم يستطع أن يطرد من مخيلته صورة المساجين والجنود المسلحين ، ومنعه قلق نفسى غير مفهوم من القراءة والتركيز ، ومسـاء لم يضىء غرفته ولم يستطع النوم ليلا • وظل يفكر أنه من الممكن أن يقبض عليه وأن توضع القيود فى يديه وأن يقاد الى السجن •

لقد كان يعلم أنه لم يقترف ذنبا ، وكان متأكدا أنه ـ فى المستقبل ـ لن يقتل أو يحرق أو يسرق ، ولكن أليس من الممكن أن يرتكب المرء جـرما بدون قصـد وبالصدفة ؟ والتهمة الملفقة ؟ وأخيرا الغلطة القضائية أليس هذا ممكنا ؟ ألا يقـول المثل الشعبى « ياما فى السجن مظاليم » ؟ ان الغلطة القضائية فى ظل نظام القضاء الحالى ممكنة جدا • ان أولئك الناس الذين ينظرون لآلام الغير نظرة عمل مثل القضاة ورجال الشرطة والأطباء قد قساهم التعود حتى أصبحوا لا يستطيعون النظر الى عملائهم نظرة غير شكلية حتى لو رغبـوا فى عكس ذلك • ومن تلك الناحيـة لا فرق بينهم وبين الجزار الذى يذبح الخراف والعجول غير عابىء بالدم • وفى ظل تلك النظرة الشكلية الى الشخص ، لكى يحرم الانسان من حقوقه ويحكم عليه بالنفى ، يحتاج القاضى الى شىء واحد فقط •• الوقت •

الوقت الكافي للقيـــام ببعض الاجراءات الروتينية التى يقبض عنها القاضى مرتبه . وبعد ذلك ينتهى كل شيء . ولتحاول بعد ذلك أن تبحث عن العدل والحماية فى تلك المدينة الصغيرة القذرة التى تقع على بعد مائتى فرسخ من خط ـ السكة الحديد ـ ثم أليس من المضحك أن يفكر المرء فى العدالة عندما يعتبر المجتمع أن كل اضطهاد هو ضرورة مسببة وعاقلة وهادفة وان كل حكم يصدر بالعفو أو بالبراءة يقابل بشعور من عـــدم الرضا والرغبة فى الثأر ؟

وفى الصباح قـام ايفان ديمترتش من على سريره مرعوبا . ينضح جبينــه عرقا باردا . ومتأكدا تماما أنه من الممكن أن يقبض عليه فى أى دقيقة . وكان يعتقد أنه مادامت أفكار الأمس ظلت تطارده طوال هذه المدة . اذا ففيها شيء من الحقيقة . فليس من المعقول أن تتوارد أفكار كهذه بدون أى سبب .

هاهو شرطى قــد مر أمام نافذته : لابد أن هناك سببا . هاهما شخصان واقفان قرب المنزل صامتين . لماذا يصمتان ؟

وهكذا صــار ايفان ديمترتش يتعذب ليل نهار . أصبح يتصور أن كل من يمر أمام النافذة أو يدخل الفناء فهو جاسوس أو مخبر .

وعادة عند الظهر يمر مأمور قسم البوليس فى عربته

ذات الحصانين قادما من عزبته الواقعة بجوار المدينة ·
ولكن يخيل لايفان ديمترتش كل مرة أن العربة تسير
بسرعة غير عادية وان على وجه المأمور يرتسم تعبير خاص :
من الواضح أنه يسرع الى القسم ليعلن عن وجود مجرم
خطير فى المدينة ·

وأصبح ايفان ديمترتش ينتفض عند سماع جرس
الباب · ويزداد قلقه اذا رأى عند صاحبة المنزل أى زائر
غريب · ويبتسم ويصفر اذا قابل أى شرطى حتى يظهر
نفسه بمظهر الهادىء غير المهتم · وأصبح لا ينام الليل
ولكنه كان يشخر ويتنهد حتى يوهم صاحبة المنزل بأنه
مستغرق فى النوم · لأنه ان كان لا ينام فلابد أن ضميره
يؤنبه عن جرم ما - وياله من دليل ! صحيح ان الحقائق
والمنطق السليم تثبت أن كل هذه المخاوف ماهى الا هراء
واضطراب فى الأعصاب وانه عند النظر الى السجن نظرة
شاملة فانه فى الواقع غير مخيف طالما كان الضمير
مستريحا · ولكنه كلما فكر بعقل ومنطق أكثر ازداد
اضطرابه وعذابه الروحى · وكان مثله كمثل الرجل
الضال الذى يريد أن ينظف لنفسه مكانا فى غابة عذراء ،
كلما عمل بفأسه فى الأشجار ازدادت الغابة كثافة ·
وأخيرا عندما وجد ايفان ديمترتش أن التفكير السليم غير
مجد لم يعد يفكر وترك نفسه يغرق فى الخوف واليأس ·

فأصبح يحب الوحدة ويتجنب الناس · ولقد كان
قبلا يكره وظيفته فأصبحت الآن بالنسبة له لا تطاق ،

فصار يخاف من أن يؤدى فى العمل ، مثلا ، ان يضع له
أحدهم رشوة فى جيبه دون أن يلاحظ ثم تكتشف ، او ان
يخطىء بالصدفه فى احدى الأوراق الرسميه خطا يمكن
اعتباره تزويرا ، او ان يفقد شيئا من مال الحكومة
الموضوع فى عهدته . ومن الغريب أنه قبلا لم يكن يتميز
بتفكير سلس مبتكر لهذه الدرجة التى وصل اليها الآن
حيث يستطيع يوميا أن يخترع آلاف الطرق والأسباب
التى من الممكن أن تجعله يقع تحت طائلة القانون . ومن
ناحية أخرى لقد فقد كل اهتمام بالعالم الخارجى وخصوصا
اهتمامه بالكتب ، كما فقد قوة ذاكرته .

وفى ربيع تلك السنة عندما ذاب الجليد أكتشفت
قرب المقابر جثتان شبه عفنتان لعجوز وطفل عليهما آثار
تدل على أن الوفاة لم تكن طبيعية ، وصارت قصة الجثتين
والمجرم المجهول حديث المدينة . وحتى لا يظن أن ايفان
ديمترتش هو القاتل صار يسير فى شوارع المدينة مبتسما
واذا قابل أحدا من معارفه فانه يشحب ويحمر ويؤكد أنه
لا يوجد عمل أكثر نذالة من قتل الضعفاء الذين لا سند
لهم ، ولكنه سريعا مامل هذا الوضع الكاذب ، وبعد تفكير
قليل قرر أن أفضل شىء فى وضعه هذا هو أن يختبىء
فى مخزن المنزل بالبدروم . وظل فى البدروم نهارا ثم
ليلة ثم نهارا آخر وتجمدت أطرافه من البرد القارس
فانتظر ظلمة المساء وذهب الى غرفته متلصصا ، وظل
واقفا فى منتصف الغرفة طول الليل ليلتقط أى صوت .

وفى الفجر عنـــدما حضر الى المنزل عمــال ـ كان ايفان ديمترتش يعلم جيدا أن صاحبة المنزل قد اتفقت معهم على الحضور لاصلاح الفرن فى المطبخ ، صور الخوف له أنهم رجال شرطة متخفون فى ملابس عمال ، فخرج بهدوء من الشقة والرعب يملأ قلبه ، وأطلق ساقيه للريح بلا سترة عارى الرأس ·· فجرت وراءه الكلاب نابحة ، وصرخ رجل خلفه ، وتصـــور ايفان ديمترتش أن كل قـــوى الاضطهاد في العالم تجمعت لتطارده ·

أمسك به النـــاس ، وأعادوه الى منزله ، وذهبت صاحبة المنزل للطبيب ، وحضر الطبيب أندريه يفيمتش ـ الذى سنتحدث عنه فيما بعد ـ ووصف له كمادات باردة على الرأس وأعطاه نقطا من محلول مهدىء ، وهز رأســه بحزن وأخبر صاحبة المنزل أنه لن يحضر مرة أخرى لأنه لا داعى لأن نمنع الناس من أن يفقدوا عقولهم فى هدوء ·

ولما لم يكن عنـــد ايفان ديمترتش دخل يسمح له بالمعيشة والعلاج فى المنزل ، فقد نقل الى المستشفى ووضع فى عنبر المرضى بأمراض تناسلية ، ولكنه لم يكن ينام ليلا ، وأصبح يقلق المرضى ، فأمر أندريه يفيمتش بأن ينقل الى العنبر نمرة ٦ ·

وخلال عام نسيت المدينة ايفان ديمترتش تماما ، أما كتبه التى كومتها صـــاحبة المنزل فى ركن من الفناء الخارجى فقد مزقها الأطفال ·

- ٤ -

وكما قلت • فقد كان اليهودى موسيكا يجاور ايفان ديمترتش من اليسار ، أما جاره من ناحية اليمين فهو فلاح سمين بل مستدير كالكرة ، ذو نظرة غبية ووجه لا يحمل على قسماته أى معنى ، وهو حيوان ساكن نهم متسخ • فقد من زمن بعيد أى مقدرة على التفكير أو الاحساس ، ودائما تتصاعد منه رائحة أذى حادة وخانقة•

وعندما ينظف نيكيتا تحته وحوله يضربه بفظاعة وكل قوة • والفظيع هنا ليس أنه يضرب ـ فمن الممكن التعود على ذلك ـ ولكن الفظيع هو أن هذا الحيوان الغبى لا يتأثر بالضرب فلا يصدر عنه أى صوت أو حركة ولا يظهر أى تعبير فى عينيه بل فقط يتأرجح كالبرميل الثقيل تحت وطأة الضربات •

أما خامس نزلاء العنبر نمرة ٦ وآخرهم فهو رجل كان يشتغل فى البريد بالتصنيف ، أشقر صغير ونحيف• اذا نظرت الى عينيه الذكيتين الهادئتين التى تنظر اليك بوضوح ومرح يخيل اليك أنه يخفى سرا مهما سارا • انه يخفى أشياء ماتحت الوسادة وتحت المرتبة ، لا خوفا من أن يستولى عليها أو يسرقها أحد بل كان يخفيها خجلا •

وكان يقف أحيانا عند النافذة موليا ظهره لبقية الرفاق ويضع شيئا ما على صدره ويحنى رأسه ناظرا لهذا الشيء فاذا اقترب منه أحد فانه يحمر خجلا وينزع هذا الشيء ولكن من السهولة معرفة هذا السر ٠

كان يقول أحيانا لايفان ديمترتش :

ــ فلتهنئنى ، لقد قدم اسمى للحصول على وسام « ستانسلاف » من الدرجة الثانية ، صحيح ان ذلك الوسام يمنح فقط للأجانب ، ولكن لسبب لا أعرفه استثنونى من هذا الشرط ٠

ثم يبتسم ويهز كتفيه قائلا :

ــ انها لمفاجأة بالنسبة لى ٠

فيرد عليه ايفان ديمترتش بتجهم قائلا :

ــ انى لا أفهم شيئا فى هذه الأمور ٠

فيواصل المصنف السابق مبتسما :

ــ وهل تعرف ما أرغب فى الحصول عليه ان آجلا أو عاجلا ؟ انى واثق من أنى سأحصل على وسام « النجم القطبى » السويدى ٠ انه لوسام يستحق التعب فهو عبارة عن صليب أبيض ذى شريط اسود ، فى غاية الجمال ٠

ويبدو أن الحياة لا تسير سيرا أكثر رتابة فى أى مكان آخر منها فى هذا المبنى ٠ ففى الصباح يتوجه المرضى ماعدا المشلول والفلاح السمين الى الفناء الداخلى ليغتسلوا

من برميل الميـاه ويتجففوا بخرق المعاطف ثم يحضر لهم نيكيتا الشاى لكل مقدار كوز فيعبونه من كيزان صفيح ٠ وفى الظهر يتناولون شربة كرنب وبرغل مسلوق وفى المساء يتكون عشاؤهم مما تبقى من البرغل ٠ وفى الفترة التى تتخلل ذلك يرقدون أو ينـــامون أو يسيرون جيئة وذهابا من ركن لآخر ، أو ينظرون من النافذة ، وهكذا كل يوم ، حتى مصنف البريد فانه يتكلم يوميا عن نفس الأوسمة ٠

وقليلا ماترى وجوها جديدة فى العنبر رقم ٦ ، اذ قرر الطبيب عدم قبول نزلاء جدد ، أما الراغبون فى زيارة مستشفى المجاذيب فهم قلة فى هذا العالم ٠ وكل شهرين يزور المبنى سيمون لازاريتش الحلاق ، ولن نتحدث عن كيفية قيام الحلاق بمهمته وكيف يساعده نيكيتا فى تأدية هذه المهمة ، ولن نتحدث عما يصيب المرضى بمجرد ظهور الحلاق الضاحك المخمور ٠

وبخلاف الحلاق لا يزور أى انسان هذا المبنى وبذلك كتب على المرضى ألا يروا من العالم الخارجى كل يوم سوى نيكيتا ٠

ولكن من مدة قصـــيرة سرت فى المستشفى اشاعه غريبة الى حد كبير ٠

لقد شاع أن الطبيب أصبح يزور العنبر رقم ٦ ٠

- ٥ -

اشاعة غريبة !

الدكتور أندريه يفيمتش راجين رجل غير عادى الى حد ما . يقال ان فى مطلع شبابه كان متدينا جدا وكان يعد نفسه ليسلك طريق رجـــال الدين ، وعندما أنهى المدرسة فى عـام ١٨٦٣ قـــرر أن يدرس فى الأكاديمية الدينية ، ولكن والده ـ الطبيب الجراح ـ هزأ به وأعلن أنه لن يعتبر أندريه ابنه اذ أصـــبح الأخير قسيسا . ولست أعلم نصيب تلك الرواية من الصحة ، ولكن أندريه يفيمتش نفسه كثيرا ما اعترف بأنه أبدا لم يحب الطب أو أيا من العلوم الطبيعية عموما .

ومهما كان فانه أنهى دراسته فى كلية الطب ولم يصبح رجل دين ، ولم يظهر عليه أى تدين ، كما لم يكن يتشبه برجال الدين لا الآن ولا فى بداية حياته كطبيب يوحى مظهره الخارجى بثقل الظل والفظاظة كالفلاح الجلف، ويذكرك وجهه ولحيته وشـــعره الملتصق برأسه وبنيته القوية الغـــير متناسقة بصـــاحب مقهى ـ على الطريق الرئيسى ـ متخم وحـاد الطبع ، وله وجه قاس ذو عروق زرقاء وأعين صغيرة وأنف أحمر ، وهو طويل القامة عريض

المنكبين ، وقبضاته ضخمة يبدو ان ضربة منها قد تودى بالمضروب ، ولكن خطواته هادئة ومشيته متزنة متلصصة ، واذا تقابل مع أحد في ممر ضيق فهو دائما الذى يتوقف أولا ليسمح للآخر بالمرور ويقول « آسف » لا بصوت غليظ ضخم كما هو متوقع بل بصوت رفيع هادىء ، وعلى رقبته ورم يمنعه من ارتداء قمصان بياقة منشاة مقفولة، لذا فهو يرتدى دائما قمصانا من قماش لين بسيط . وعموما لباسه لا يشبه لباس طبيب ، فهو ينتعل الحذاء الواحد لمدة عشر سنوات متصلة أما اللباس الجديد الذى يبتاعه من حانوت اليهودى فيبدو عليه كالقديم . وهو يستقبل المرضى ويأكل ويقوم بزياراته بنفس الرداء ، ذلك لا لبخله بل لعدم اهتمامه بمظهره الخارجى .

وعندما قدم أندريه يفيمتش الى المدينة ليشغل وظيفته كطبيب المستشفى وجد « مؤسسة البر » هذه فى حالة فظيعة . فيكاد المرء يختنق فى ممرات وعنابر وفناء المستشفى من رائحة الأذى ، وكان عمال المستشفى وعاملاتها بعائلاتهم وأولادهم يشاركون المرضى عنابرهم ، وكان الجميع يشكون من الصراصير والبق والفئران ، ولم يكن هناك أى أجهزة فى قسم الجراحة بل لم يكن هناك الا مشرطان فى كل المستشفى . ولم يكن بالمستشفى أجمعه ترمومتر واحد ، والبطاطس تحفظ فى الحمامات ، وملاحظ المستشفى وكبير الممرضين وكل العاملين ينهبون المرضى باستمرار ، ومما يقال عن الطبيب القديم ــ الذى

كان يشغل وظيفة طبيب المستشفى قبل أندريه يفيمتش ــ انه كان يبيع كحول المستشفى سرا ، كما كون لنفسه حريما خاصا من عاملات المستشفى والمرضى النساء ٠ وكان أهل المدينة يعلمون جيدا كل هذا بل كانوا يضخمون هذه الحقائق ومع ذلك كانوا ينظرون لهذه الأشياء بهدوء ، بل كان البعض يبرر ذلك بقوله ان المستشفى لا تضم الا مرضى الطبقة الفقيرة والمتوسطة ومرضى الفلاحين الذين لا يمكن أن يكونوا مستائين من هذا الوضع اذ أن حياتهم المنزلية أسوأ من هذا بكثير ٠ وليس من المعقول أن نقدم للمرضى البط المشوى ! وكان البعض الآخر يبرر ذلك بقوله ان المدينة وحدها دون مساعدة المحافظة لا تستطيع أن تقوم على الوجه الأكمل بأعباء المستشفى ، وحمدا لله على أن بالمدينة مستشفى فذلك خير من لا شيء ٠ ولم يقرر مجلس المحافظة فتح مستشفى أو عيادة خارجية فى المدينة أو بجوارها اعتمادا على وجود هذه المستشفى ٠

وبعد أن تفقد أندريه يفيمتش المستشفى وجد أنها لا أخلاقية بل ومضرة بالصحة العامة كما أنه رأى أن أفضل مايمكن عمله هو اطلاق سراح المرضى واغلاق المستشفى ٠ ولكنه وجد أن الأمر لا يتعلق فقط بارادته الشخصية وأنه لا فائدة تجنى من طرد القاذورات المادية والأخلاقية من مكان طالما أنها ستنتقل الى مكان آخر ، لذا فلابد من الانتظار حتى يتطهر كل شيء من تلقاء نفسه ، وبالاضافة الى ذلك ــ اذا شيد الناس مستشفى وتحملوا

مساوئها فان ذلك يعنى أنهم فى حاجة اليها ، كما أن جميع المعتقدات البالية والأشياء القذرة الوضيعة ضرورية لأنها بمرور الوقت تتحـول الى شىء مفيد ، كالروث حين يختلط بالتراب . ولا يوجد شىء طيب على ظهر الارض لم يحتو فى صورته الأولى على بعض القذارة .

وعندما تسلم أندريه يفيمتش مهام وظيفته كان من الواضح أن نظرته الى هذه الفوضى تتسم باللامبالاة ، فقد طلب من عمال المستشفى عدم المبيت فى العنابر ، ثم طالب بوضع صـوانين للأجهـزة الطبية . أما الملاحظ وكبير الممرضين ورئيسة الممرضات فقد بقوا فى أماكنهم .

ويحب أندريه يفيمتش العقل والشرف حبـا جما ولكنه لا يستطيع أن يصنع حوله حياة عاقلة وشريفة لأنه لم يكن يتمتع بما فيه الكفاية من قوة العزيمة والايمان بأنه على حق ، ولم يكن يستطيع الأمر والنهى والالحاح ، كأنه قد أخذ على نفسه عهدا بعدم رفع صوته أو استعمال صيغة الأمر أبدا ، فمن الصـعب عليه أن يقول « اعطنى ! » أو « احضر ! » ، ومثلا عندما يريد أن يأكل أو يتناول الشاى فانه يتنحنح مترددا ثم يقول للطباخة : «ماذا عن غذائى؟» أو «ماذا عن الشاى ؟ ..» . لقد كان مستحيلا عليه أن يأمر ملاحظ المستشفى بالكف عن السرقة أو أن يلغى هذه الوظيفة الطفيلية الغير ضرورية للمستشفى .

وعندما يخدع أحدهم أندريه يفيمتش أو يتملقه أو يعرض عليه حسابات ملفقة فان وجهـه يحمر كسرطان

البحر ويداخله شـعور بالذنب ، ومع ذلك يعتمد هذه الحسابات ، وعندما يشكو له المرضى من الجوع ومن قسوة الممرضات فانه يخجل ويتمتم كالمذنب قائلا :

ـ حسنا · حسنا · سأنظر فى الأمر ·· لابد أن هناك سوء تفاهم ···

وفى أول الأمر كان أندريه يفيمتش يعمـل بجد ، فقد كان يستقبل المرضى من الصباح حتى الغداء ، ويجرى الجراحات ، بل وكان يولد النسوة · وكانت النساء تقول عنه أنه دقيق الملاحظة ويحدد المرض بسهولة خصوصـا أمراض النساء والأطفال ، ولكن بمرور الوقت مل العمل لرتابته وعدم جدواه الواضحة · اذا استقبل اليوم ثلاثين مريضا غدا يحضر خمس وثلاثون وبعد غد أربعون وهكذا يوما بعد يوم وعاما بعـد عام ، ومع ذلك لا يقل معدل الوفاة ، ويواصـل المرضى الحضـور ، ومن المستحيل موضوعيا أن تقدم مساعدة جدية لأربعين مريضا فى فترة مابين الصباح والظهر ، اذن يجد الانسان نفسه منغمسا فى ممارسة الخداع ، فان استقبال مائة وعشرين ألفا من المرضى فى العام يعنى ببساطة استغفال مائة وعشرين ألف انسان فى العام ، ومن المستحيل أن تضع المرضى بأمراض خطيرة فى العنابر وأن تطبق عليهم قواعد العلم ذلك لأن القواعد موجودة والعلم لا وجود له · أما اذا تركت التناول الفلسفى للموضوع وأردت أن تتبع القواعد شكليا فانه لابد من توفير النظافة والتهوية لا القذارة ، ولابد من الغذاء

الصحى لا الشــوربة المطهوة من الكرنب الحامض العفن ، ولابد من وجود مساعدين جيدين لا لصوص ٠

ثم لماذا نمنع الناس من أن يموتوا اذا كان الموت هو النهاية الطبيعية للانسان ؟ وما الفائدة من مد حياة تاجر أو موظف خمس أو عشر سنوات ؟ واذا اعتبرنا أن هدف الدواء هو تخفيف حـــدة الألم يقفز الى الذهن السؤال التالى : ولم نخففها ؟ أولا : يقال أن الآلام تساعد الانسان على بلوغ الكمال ، وثانيا : اذا تعلمت الانسانية فعلا أن تخفف آلامهـــا بالحبوب والنقط فانهـا ستهمل الدين والفلسفة تماما ، لأنهـــا للآن تجـد فيهما بلسمـا لكل المصائب ، بل وتجد فيهما السعادة ٠ ان بوشكين (١) قبل وفاته قاسى آلاما فظيعة ، والمسكين هاينى (٢) ظل مشلولا لسنوات طويلة ، فلماذا لا يقاسى مثلا أندريه يفيمتش أو ماترينا سافيشنا من المرض اذا كانت حياتهم بدون هذه الآلام ستصبح فارغة لا مضـــمون لهـا وأشـبه بحياة الاميبيا ؟

تحت وطأة هـــذه الأفكار أصيب أندريه يفيمتش باللامبالاة ، وقل ذهابه الى المستشفى ٠

---

(١) بوشكين : أشهر شعراء الروس ، عاش فى أوائل القـرن التاسع عشر ــ المترجم ٠

(٢) هنرى هاينى : ــ شاعر ألمانى (١٧٩٧ ــ ١٨٥٦) ــ المترجم

- ٦ -

ويمر يومه كالآتى : يستيقظ عـــادة فى حوالى الثامنة ، يرتدى ملابسه ويشرب الشـــاى ثم يجلس الى مكتبه أو يذهب الى المستشـــفى · فى المستشفى يجلس مرضى العيادة الخارجية فى الممر الضيق المظلم فى انتظار بدء الكشف ، وفى هذا الممر يسرع العاملون فى المستشفى تدق أحذيتهم أرضية المشى المصنوعة من الطوب · ويمر المرضى النحاف مرتدين معاطف المستشفى ، وعلى النقالات جثث الموتى والماعون الملىء بالنفايات ، ويبكى الأطفال ، وتشعر بتيار الهواء البارد ، ويعلم أندريه يفيمتش أن هذا الوضع مؤلم بالنســبة لمرضى الحميات والســـل · ولكن ما العمل ؟ وفى غرفة الاستقبال يقابله التمرجى سرجيى سرجيتش ، وهو رجل صغير سمين ، حركاته حالمة ، ذو وجه حليق نظيف ممتلىء ، يرتدى حلة جديدة واسعة ، وهو أكثر شـــبها بالسناتور منه بالتمــرجى ، وله فى المدينة عملاء كثيرون ، ويرتدى رباط عنق أبيض ويعتبر نفسه أكثر علما من الطبيب الذى لا عملاء له · وفى غرفة الاستقبال نجد فى الركن ايقونة فى اطار جميل وبجوارها شمعدان ثقيل محفوظ فى جـــراب ، وعلى الجدران صور

للكاردينالات وصورة لدير سفيتاجورسك وبجوارها فروع زهر مجدولة · وسرجيى سرجيتش رجل متدين يذكر الله دائما ، وهو الذى آمر بوضع الايقونة كما يأمر كل يوم أحد أن يقرأ أحد المرضى بعض آيات الانجيـــل ، وبعد القراءة يبخر سرجيى سرجيتش بنفسه كل العنابر ·

المرضى كثيرون والوقت ضيق لذا يتكون الكشف من أسئلة قصيرة سريعة ثم تصرف بعض الأدوية كمرهم الاكتيول أو المزيج ، وأثناء ذلك يجلس أندريه يفيمتش واضعا يده على خده غارقا فى تأملاته ويلقى الأسئلة بطريقة ميكانيكية · ويجلس الى جواره سرجيى سرجيتش يفرك يديه وأحيانا يتدخل بقوله :

ـ اننا نقاسى المرض والحاجة لأننا لا نصلى للرب كما يجب · طبعا !

وفى فترة الاستقبال لا يقوم آندريه يفيمتش بأى جراحات ، لقد فقد التعود عليهـــا من مدة طويلة وأصبح منظر الدم يثيره · وعندما يحاول فتح فم طفل لينظر فى حلقه ويبكى الطفل مدافعا عن نفسه بقبضتيه الصغيرتين يشعر الطبيب بدوار تحت تأثير هذا الضجيج وتدمع عيناه فيسرع فى كتابة الروشتة ويلوح بيده لتأخذ المرأة طفلها وتخرج سريعا ·

وسريعا ما يمل خجل المـرضى وعجـزهم عن شرح حالتهم ، وتضجره صحبة التمورجى ، ويمل الصور المعلقة

على الجدران ، ويمل أسئلته التي يكررها دائما منذ أكثر من عشرين عاما ، لذا فبعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى يغادر المستشفى ، أما باقي المرضى فيستقبلهم التمورجي ٠

وتدور في رأسه فكرة تفرحه ، انه حمدا لله لايوجد عنده من زمن عملاء خصوصيون ولن يقلقه أحد ، وعندما يصل أندريه يفيمتش الى مسكنه يتوجه سريعا الى غرفة المكتب ثم يبدأ فى القراءة ، وهو يقرأ كثيرا جدا ودائما بتلذذ واضح ، وينفق نصف مرتبه الشهرى على شراء الكتب ، وتتكوم الكتب والمجلات المقروءة فى ثلاث غرف من غرف مسكنه الست ٠ وهو يحب مؤلفات التاريخ والفلسفة ، أما بالنسبة للطب فهو مشترك فى مجلة « الطبيب » فقط ، وكان يبدأ تصفحها دائما من الصفحات الأخيرة ٠ ويقرأ كل مرة عدة ساعات متواصلة دون تعب أو اجهاد ، ولم يكن يقرأ بسرعة واندفاع كما كان يفعل ايفان ديمترتش ، بل كان يقرأ ببطء ، وتعمق ، وكثيرا ما كان يتوقف عند تلك السطور التى تروقه أو التى لا يفهمها ٠ وبجوار الكتاب يوجد دائما دورق مملوء بالفودكا وخيارة مملحة أو تفاحة مسلوقة موضوعة على مفرش المكتب رأسا بلا طبق ، وكل نصف ساعة ودون أن يرفع عينيه عن الكتاب يصب لنفسه كأسا من الفودكا ويحتسيه ثم يتحسس بأصابعه الخيارة ليقضم منها جزءا ٠

وفى الثالثة بعد الظهر يتقدم بحذر نحو المطبخ ويسعل ثم يقول :

ـ داريوشا ٠٠ ماذا عن غدائی ٠٠

وبعد أن يتناول الغداء السيىء الطهى الى حد كبير ، يبـدأ أندريه يفيمتش فى السير فى الغرفات عاقدا يديه على صدره ويفكر ، وتدق الساعة الرابعة ثم الخامسة وهو لا يزال يسير ويفكر ، وأحيانا يسمع صرير باب المطبخ ويظهر وجه داريوشا الأحمر الناعس وتسأله باهتمام :

ـ أندريه يفيمتش ٠٠ ألم يحن ميعاد البيرة ؟

ـ لا ٠٠ لم يحن الوقت ٠٠ سأنتظر ٠٠ سأنتظر ٠٠

وعند المساء ، عادة يحضر مدير مكتب البريد ميخائيل أفريانتش ، وهو الانسان الوحيـد فى كل المدينة الذى يستطيع أندريه يفيمتش أن يتحمله ، ولقد كان ميخائيل أفريانتش فى الماضى اقطاعيا غنيا جدا ، كما كان ضابطا فى سلاح الفرسان ، ثم أفلس واضطرته الحاجة الى العمل فى البريد عن كبر ، وهو صحيح الجسم نشيط ذو سوالف بيضاء نافشة ، وطباعه تدل على تربية نبيلة ، وله صوت جهورى لطيف ، وهو طيب حساس ولكنه سريع الغضب، وفى مكتب البريد عندما يبدى أحد من الجمهور اعتراضه أو لا يوافق على شىء ما أو حتى يناقش الموظف يحمر وجه ميخائيل أفريانتش وينتفض كل جسده ، ثم يصرخ بصوت كالرعد « اخرس ! » لذا صار لمكتب البريد سمعة المكان الذى يخاف النـــاس الذهاب اليه ٠ ويحترم ميخائيل أفريانتش أندريه يفيمتش ويحبـه لثقافته ونبل روحـه

ولكنه يتكبر على بقية أهل المدينة كما لو كانوا من مرءوسيه ٠

وعندما يدخل عند أندريه يفيمتش يبادىء قائلا :

ـ ها أنا ذا ! سعدت مساء يا عزيزى ! لابد ان زياراتى قد أضجرتك ، هيه !

فيجيب الطبيب :

ـ بالعكس ٠٠ انى لمسرور ٠٠ أنا دائما أسر لرؤيتك٠

ثم يجلس الصديقان على الأريكة فى غرفة المكتب فترة صامتين يدخنان ٠٠ وينادى أندريه يفيمتش :

ـ داريوشكا ٠٠ ماذا عن البيرة !

يشربان الزجاجة الأولى صامتين ، الطبيب غارق فى أفكاره ، وميخائيل أفريانتش مرح حيوى المظهر كأنه يستعد لقول شيء ما شيق جدا ، ودائما يبدأ الطبيب الحديث ، فيقول ببطء ، وصوت منخفض ، دون أن ينظر فى عينى محدثه (فهو لا ينظر أبدا فى العينين) :

ـ يا له من أمر محزن ، محزن جدا يا ميخائيل أفريانتش المحترم ، انه لا يوجد بتاتا فى مدينتنا أحد يجيد ويحب الحوار الشيق الذكى ٠ اننا بذلك نفقد الكثير ، حتى المثقفون لا يسمون على التهريج ، انى أؤكد لك أن مستوى نضجهم الفكرى لا يرتفع عن مستوى الطبقات السفلى ٠

ـ صحيح تماما ٠ انى أوافقك ٠

فيواصل الطبيب بصوت خفيض متمهلا :

ـ انك تعلم بنفسك ان كل شيء في هذا العالم منحل تافه الا النتاج الروحي السامي للعقل الانساني . فالعقل يضع حدا فاصلا بين الحيوان والانسان بل ويرمز الى ألوهية الأخير ، ويعتبر الى حد ما بديلا للحياة الأبدية التي لا نتمتع بها . ونتيجة لذلك يكون العقل هو المصدر الوحيد المتاح للتمتع بالحياة ، وحولنا لا وجود للعقل ، لا نراه ولا نسمع عنه شيئا ـ ولذلك نحن محرومون من هذه المتعة ، صحيح نحن نملك الكتب ولكنها لا تغني عن الحوار ، واذا سمحت لي أن أستعير تشبيها ليس دقيقا تماما فاني أقول ان الكتب هي النوتة الموسيقية أما الحوار فهو الغناء .

ـ هذا صحيح تماما .

ويخيم الصمت ، وتخرج داريوشا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن غبي ، تضع يدها على خدها ، وتقف بالباب لتنصت الى الحديث .

ويتنهد ميخائيل أفريانتش قائلا :

ـ ايه .. انك تطلب الكثير من عقل هذا الجيل !

ثم يبدأ في الكلام عن الحياة في الماضي وكيف كانت هذه الحياة شيقة ومرحة ، وكيف كان المثقفون في روسيا أذكياء ، يقدسون مفاهيم الشرف والصداقة ، ويقرضون النقود بلا وصولات ، ويعتبرون أن التخلي عن مساعدة

الرفيق المحتاج أمرا مخجلا · وأية رحلات ومغامرات ومشادات ! وأي رفاق ! وأي نساء ! والقوقاز ، يا لها من منطقة عجيبة ، وقال :

ـ لقد عرفت هناك امرأة عجيبة ـ زوجة أحد زملائى الضباط ـ كانت تضع على كتفيها المعطف الميرى وتخرج ليلا الى الجبال ، وحدها بلا مرافق ، يقال أنها كانت تعشق أحد شيوخ القبائل هناك ·

وتتنهد داريوشكا متمتمة :

ـ يا قيصرة السماوات ! يا أمنا ···

ويستمر ميخائيل أفريانتش :

ـ كم شربنا وكم أكلنا وكم تناقشنا ! كم كنا ليبراليين !

ويسمع أندريه يفيمتش الى الحديث ولا يصغى اليه لأنه يفكر في شيء ما ، ويشرب البيرة ببطء ، بجرعات صغيرة ، ثم يقاطع ميخائيل أفريانتش فجأة بقوله :

ـ كثيرا ما أرى فى الحلم أننى فى حوار مع ناس أذكياء · لقد أعطانى والدى تعليما ممتازا ، ولكنه ـ متأثرا بأفكار الستينات ـ اضطرنى لدخول كلية الطب ، ويخيل الى أننى لو لم أمتثل بأمره لكنت الآن في قلب الحياة الفكرية ، بالطبع ليس العقل شيئا أبديا بل انه وقتى ولكننى أقدسه · ان الحياة مصيدة غبية ، عندما يصل الانسان المفكر الى الرجولة والمعرفة الناضجة فانه يشعر

كأنه وقع فى مصيدة لا مخرج منها ، فعلا يجد الانسان نفسه - بدون ارادته - مشدودا بظروف وصدف معينة من العدم الى الحياة ·· لأى هدف ؟ يريد الانسان أن يعرف معنى وهدف وجوده ولكن ما من مجيب ، واذا أجابوا فبخلط غير مفهوم · انه يطرق الأبواب ولكنها لا تنفتح ، ثم يأتي الموت أيضا دون ارادته · وفى السجن ترتفع روح المسجونين المعنوية عندما يتجمعون معا وهكذا فى الحياة لا يحس المرء بهذه المصيدة اذا كان من ذلك النوع من الناس الذين يحبون أن يشغلوا وقتهم فى تبادل الأفكار الحرة الأبية ، وهذا ما أعنيه بقولى ان العقل هو اللذة التى لا بديل لها ·

- هذا صحيح تماما ·

ويواصل أندريه يفيمتش - دون أن ينظر فى العينين - حديثه الهادىء الذى تتخلله لحظات الصمت ، عن الناس الأذكياء والحوار معهم ، أما ميخائيل أفريانتش فينصت بانتباه ويوافق بجملته :« صحيح تماما » ·

ويسأل رجل البريد فجأة :

- ألا تؤمن بأبدية الروح ؟

- لا ياحضرة المحترم ميخائيل أفريانتش ولا أجد أسبابا تدعونى لهذا الايمان ·

- حقيقة أنا أيضا أشك فى ذلك ، ولكنى أشعر كما لو أنى لن أموت أبدا ·· وأحيانا أقول لنفسى : « ايه أيها العجوز ها قد حان أجلك » ولكنى أشعر بصوت

خافت - من أعماق نفسي - يقول : « لا لن تموت » !

وبعد التاسعة بقليل ينهض ميخائيل أفريانتش ‥ وفى المدخل أثناء ارتدائه المعطف الثقيل يتنهد قائلا :

- يا للمقادير التى حكمت علينا بالنفى الى هذا المكان النائى ‥ وأفظع ما فى الأمر هو اننا سنموت هنا. ايه !

- ٧ -

وبعد ما يرافق أندريه يفيمتش صاحبه الى الباب ، يعود الى مكتبه ليواصل القراءة ولا يعكر أى صوت صفو المساء أو الليل ويكاد الزمن أن يتوقف ويسكن مع الطبيب المنكب على كتابه وكأنه لا يوجد شيء فى العالم كله الا هذا الكتاب وذلك المصباح ذو الزجاجة الزرقاء . وبمرور الوقت تختفى الفظاظة والجلافة من وجه الطبيب وتحل محلها ابتسامة رضا وفرح أمام خلجات العقل الانسانى ، وتدور فى رأسه مختلف الأفكار ، أوه لم لا يتمتع الانسان بالحياة الأبدية ؟ لم وجدت مراكز الاحساس والتفكير فى مخ الانسان ولم وجدت حاسة النظر والقدرة على التعبير ، لم وجد الشعور ، لم وجدت العبقرية اذا كان مقدرا لكل هذا فى نهاية المطاف أن يدفن فى الأرض ثم يبرد مع

القشرة الأرضية ويدور لملايين السنين مع الكرة الأرضية حـول الشمس بلا معنى أو هدف ؟ فلا داعى لان يؤتى بالانسان من العدم ليبرد ثم ليدور مع الأرض ، هـــذا الانسان الذى يتمتع بعقل سـام شـبه الهى ، يؤتى به ليحول الى طين ، ان ذلك أشبه بنكتة ٠

المادة لا تفنى ولا تستحدث ٠ لكن من الجبن أن يرضى الانسان بهذه الأبدية الحقيرة ٠ ان هذه العمليات الطبيعية العفوية لأقل مرتبة حتى من الغبـاء الانسانى لان الغبـاء يحتوى على معرفة وارادة أما تلك العمليات فلا تحتوى على شيء ٠ ان الجبـــان فقط ـ الذى يفـوق خوفه من الموت اعتزازه بنفسه ـ هو الذى يستطيع أن يهدىء من روع نفسه بان جسده سيظل يحيا فى نبتة أو حجر أو ضفدع ٠٠ ان الانسان اذا اعتبر انه أبدى لمجرد ان جسده كمادة لا يفنى مثله كمثل من يتوقع مسـتقبلا رائعا لصـندوق كمان جيد بعد أن يتحطم هذا الكمان ٠

وكلما تدق الساعة يستريح أندريه يفيمتش بجسده على ظهر الكرسى ويغمض عينيه ليفكر قليلا ، ودون قصد وتحت تأثير الأفكار الجيـدة التى قرأها يلقى نظـرة على ماضيه وحاضره ، الماضى مقرف لا داعى لتذكره والحاضر كالماضى ٠ فهو يعلم انه الآن وبينما تدور أفكاره مع الكرة الأرضية ـ التى بردت قشرتها ـ حول الشمس ، يوجد فى المستشفى الكبير بجـوار مسكنه ناس يتعـذبون من المرض والقذارة ، ومن المحتمل أن أحدهم فى هذه اللحظة

لا يستطيع النوم بل يناضل ضد الحشرات ، أو أن أحدهم يتأوه متألما من الرباط الضيق حول جرحه ، أو أن بعض المرضى يلعبون الورق ويحتسون الفودكا مع الممرضات . في العام الواحد يخدع مائة وعشرون ألف انسان . ان المستشفى كما كانت منـــذ عشرين عاما لازالت مليئة بالسرقات والمؤامرات الحقيرة والاشاعات والخواطر والوساطة والخـــداع الفظ ، انها لازالت مؤسسة لا أخلاقية ومضرة بالصحة العامة . انه يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى فى العنبر رقم ٦ وأن موسيكا يتجـــول فى المـدينة يوميا ليتسول .

وكذلك فانه يعلم جيدا أن علم الطب قد تطور تطورا مذهلا فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة ، لقد كان يظن ابان دراسته فى الجامعة أن الطب سيئول الى نفس النهاية التى منى بها علم السحر والميتافيزيقا ، أما الآن فان نفسه تمتلىء بالعجب والفرح عندما يقرأ ليلا عن تطور الطب ، فعلا يا له من تطور غير متوقع ، يا لها من ثورة ! بفضل مضـادات التلوث أصبح من الممكن اجراء عمليات صعبة لدرجة أن بيراجوف(١) العظيم كان يعتبرها مستحيلة من حيث المبـدأ ، لقد أصبح فى استطاعة الأطباء المتوسطى الخبرة أن يقوموا بعملية بتر السـاق عند المفصل بنسبة نجاح تسعة وتسعين فى المائة ، أما مرض تحجر الأنسجة

---

(١) بيراجوف عالم طب روسى مشهور عاش فى القرن التاسع عشر . (المترجم)

فقد أصبح من الأشياء البسيطة لدرجة أن أحدا لا يكلف نفسه عناء الكتابة عنه فى المجلات العلمية ، وصار من الممكن شفاء مرض الزهرى شفاء تاما ٠ ونظرية الوراثة ، ونظرية التنويم المغناطيسى ، واكتشافات باستير وكوخ ، وعلم التعقيم والتطهير ، والطب النفسى ، وطرق تصنيف الأمــراض والكشف عنها وعلاجها ٠ يا للتطور المذهل ! فمثلا ، لا يعالج المجانين الآن بصب الماء البارد على رءوسهم أو بالباسهم « القميص » ، بل يضـــعونهم فى مصحات محترمة ويسمحون لهم بالاشـــتراك فى الحفلات ومشاهدة المسرحيات الخاصة ، ويعلم أندريه يفيمتش جيدا أن شيئا وضيعا كالعنبر رقم ٦ لا يمكن أن يتواجد فى ظل آراء ووجهات نظر أواخر القرن التاسع عشر الا فى مكان نا‌ء على بعد مائتى فرسخ من خط السكة الحديدية ، فى تلك المدينة التى يعتقــد عمدتها وأهلها أنصــاف المتعلمين أن الطبيب كاهن لابد من الثقة به ثقة عمياء حتى لو صب فى حلق المريض قصديرا مصهورا ، أما لو كان ذلك موجودا فى أى مكان آخر لحطم الناس والصحافة حصن الباستيل الصغير هذا ٠

ويفتح أندريه يفيمتش عينيه ويتساءل : « وما بعد ذلك ؟ وما النتيجة ؟ اكتشفت مضادات التلوث ، وجاء باســتير وكوخ باختراعاتهما ، ولكن جوهر الموضــوع لم يتغير ، نســبة المرض ومعــدل الوفاة لم يتغيرا ، صحيح يسمح للمجانين بالاشتراك فى الحفلات ومشاهدة المسرحيات

ولكنهم لا زالوا محبوسين فى عنـابرهم اذن فكل هـذا تخريف ، وفى الواقع لا فرق بين أعظم مستشفى فى فينا وبين مستشفاى ٠

ولكن يداخله شعور بالأسى ، واحساس يشبه الحسد مما يجعله قلقا ٠ يبدو ان ذلك نتيجة للاجهاد ٠ ويلقى برأسه الثقيل على الكتاب ويضع يده تحت خده ويواصل التفكير « اننى فى وظيفتى هذه أقوم بعمل مضر ، وأحصل على راتبى ممن أخدعهم اذن فأنا غير شريف ، ولكن أنا فى واقع الأمر لا شىء ، أنا فقط جزىء من الفظاظة الاجتماعية الحتميـة ، فان كل الموظفين يقومون بأعمال غير مفيـدة ويحصلون على رواتبهم دون وجه حق ٠٠٠ اذن أنا لست مذنبا فى اننى غير شريف ، بل الذنب ذنب العصر ٠٠٠ فلو ولدت بعد مائتى عام من الآن لكنت انسانا آخر » ٠

وعنـدما تدق الساعة الثالثة بعـد منتصف الليل يطفىء المصباح ويتوجه لغرفة النوم وليس به أى رغبة فى النوم ٠

- ٨ -

منذ عامين قرر مجلس المحافظة فى نوبة كرم أن يساعد المدينة فى تدعيم الخـدمات الطبية فقرر منحهـا

ثلاثمائة روبل سنويا وذلك لحين تشييد مستشفى جديد تابع للمحافظة ، فعين طبيب جديد لمساعدة أندريه يفيمتش هو يفجينى فيودرتش خوبوتوف • وهو شاب لم يبلغ الثلاثين بعد ، طويل ، أسمر ، ذو وجه عريض وعينين صغيرتين ، جاء الى المدينة مفلسا ، يحمل حقيبة ضخمة ، وبرفقته امرأة شابة غير جميلة تحمل طفلا رضيعا ، وقال انها طاهيته • ويضع يفجيني فيودرتش كابا على رأسه وينتعل حذاء برقبة ، وفى الشتاء يرتدى معطفا قصيرا • وسريعا ما تفاهم مع كبير الممرضين سرجيي سرجيتش ومع أمير المخزن ، وأطلق على بقية الموظفين ـلسبب غير مفهومـ اسم « الارستقراطيون » وصار يتجنبهم • وكان مسكنه يحتوى على كتاب واحد فقط هو « أحدث روشتات مصححة فينا عن سنة ١٨٨١ » وكان يحمل معه دائما هذا الكتاب فى زياراته للمرضى ، ومساء كان يلعب البلياردو فى النادي ولم يكن يلعب الورق ، وكان يحب أن يستعمل فى حديثه تعبيرات ملتوية غريبة •

كان يعمل يومين فى الأسبوع حيث يمر على العنابر ويستقبل المرضى فى العيادة الخارجية ويضيق ذرعا من عدم وجود مضادات التلوث وعدم وجود كاسات الهواء ولكنه لا يغير شيئا من النظام الحالى حتى لا يحرج أندريه يفيمتش ، وهو يعتبر أن زميله خبيث ويشك فى أن لديه دخلا كبيرا ويحسده سرا • ولا يوجد عنده مانع فى أن يحل محله •

- ٩ -

في احدى أمسيات الربيع في أواخر مارس ، بعد ذوبان الجليد ، والعصافير تزقزق في حديقة المستشفى ، خرج أندريه يفيمتش ليوصل صاحبه رجل البريد ، وفي هذه اللحظة كان موسيكا عائدا من رحلته اليومية عاري الرأس منتعلا حذاء المطر على قدميه العاريتين ، وفي يده مخلاة تحتوي على ما شحذه ، واستوقف الطبيب وقال له منتفضا من البرد مبتسما :

ـ اعطني كوبيكا !

فأعطاه أندريه يفيمتش ـ الذي لا يستطيع أن يرفض أبدا ـ قطعة من ذات العشرة كوبيكات ٠

ونظر الطبيب الى ساقي موسيكا العجفاوين العاريتين وفكر في نفسه « هذا ليس بحسن ، فالجو بارد رطب » ٠

وبشعور يشبه العطف والقرف تبعه الطبيب الى المبنى الصغير ناظرا الى صلعته تارة ، والى سيقانه تارة أخرى ، ولما رأى نيكيتا الطبيب داخلا نهض سريعا من على كومة المخلفات ، وبادره الطبيب قائلا بلين :

ـ نعمت مساء يا نيكيتا ، ماذا لو صرفنا لهذا المريض حذاء جديدا ، والا سيصاب بنزلة برد ٠

ـ أمر سيادتكم ، سأبلغ الأمر الى أمين المخزن ٠

ـ لو سمحت ، سلمه باسمى ، قل له انى أرجوه ٠

وفى هذه الأثناء كان باب العنبر مفتوحا وكان ايفان ديمترتش راقدا على سريره مرتكزا على كوعيه ، رافعا رأسه يتصنت الى الصوت الغريب بقلق ، وفجأة تعرف على الطبيب ، فانتفض كل جسده وجحظت عيناه ، وقفز الى منتصف العنبر وصرخ :

ـ جاء الدكتور ٠

ثم قهقه وأضاف :

ـ أخيرا ! أهنئكم أيها السادة ، ان الدكتور سيشرفنا بزيارته ٠٠ أيها الثعبان الملعون !

وفى ثورة غضب جنونى صار يضرب الأرض بقدميه صارخا :

ـ لابد من قتل هذا الثعبان ! لا ، ان قتله قليل ! لابد من اغراقه فى مكان مهجور !

فلما سمع أندريه يفيمتش هذا الصراخ أطل برأسه داخل العنبر وسأل بلين :

ـ بأى جرم ؟

فصرخ ايفان ديمترتش :

ـ بأى جرم ؟!

وتقدم الى الطبيب بشكل مهدد ، ململما معطفه

بأصابع مرتجفة ، متخذا بفمه وضع من يرغب في البصق وصرخ :

ـ بأى جرم ؟ يا لص ! يا مخادع ! يا قاتل !

فأجاب أندريه يفيمتش مبتسما كالمذنب :

ـ أرجوك ٠ هدىء من روعك ٠ اننى أؤكد لك انى لم أسرق أبدا ، كما يبدو انك تضخم جدا فى بقية التهم ٠ أراك غاضبا على ٠ أرجو أن تقول لى بهدوء وبرود ٠ لماذا تغضب منى ؟

ـ ولماذا تحبسوننى هنا ؟

ـ لانك مريض ٠

ـ أجل ٠ أنا مريض ، ولكن هناك عشرات بل مئات من المجانين يتجولون طلقـــاء ، ذلك لأن جهلكم لا يجعلكم تستطيعون تمييزهم عن الاصحاء ٠فلماذا اسجن أنا وهؤلاء المساكين نيابة عن كل المجانين ، مثل كباش الفداء ؟ انت وكبير الممرضين وأمين المخزن وكل انذال المستشفى من وجهة النظر الاخلاقية أقل من أى واحد منـــا بمراحل ، اذن لماذا نسجن نحن ولا تسجنون انتم ؟ أين المنطق ؟

ـ لا المقارنة الاخلاقية ولا المنطق يلعبان أى دور فى هذا الموضوع ٠ بل ان كل شىء وليد الصـــدفة ٠ فمن يمسك به يسجن ومن لم يمسك به يعش حـــرا طليقا ٠ هذا هو كل شىء فلا علاقة بين كونى طبيبا وكونك مريضا وبين الاخلاقيات والمنطق ولكن العملية كلها صدفة بحتة٠

فأجاب ايفان ديمترتش بغضب :

ـ أنا لا أفهم هذا الخلط ·

وجلس على سريره ·

واستغل موسيكا فرصة ان نيكيتا خجل ان يفتشه فى حضـور الطبيب فرص عـلى السرير كسرات الخبـز وقصاصات الورق وقطع العظم التى كانت فى مخـلاته ، وأخذ يتمتم بسرعة وتنغيم بالعبرية · كان يتصور انه فتح حانوتا ·

وقال ايفان ديمترتش :

ـ اخرجنى من هنا · أرجوك ·

ثم تحشرج صوته · فقال الطبيب :

ـ لا أستطيع ·

ـ لكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ لأنى لا أملك هذا الحق ، فلتفكر بنفسـك · أى فائدة يمكن أن تجنيها من ذلك ؟

انك اذا خرجت سيمسك بك النـاس أو رجـال الشرطة ويعيدونك ·

ـ أجل · أجل هذا صحيح ·

ومسح جبينه بيده وأضاف :

ـ هذا فظيع ! ولكن ما العمل ؟ ما العمل ؟

أعجب اندريه يفيمتش بصـوت ايفـان ديمترتش

وبوجهه الذكي ، فأراد أن يطيب خاطره وأن يهدىء من روعه فجلس الى جواره على السرير وقال :

ـ أنت تتساءل : ما العمل ؟ ان أفضـــل شيء فى وضعك هو أن تهرب من هنا ، ولكن للأسف دون فائدة، فسيمسكون بك • انك لا تستطيع أن تهزم المجتمع عندما يحمى نفسه من المجرمين والمجانين وكل من يسببون له المشاكل ، وبذلك لا يبقى لك الا حل واحد هو أن تقنع نفسك بأن وجودك هنا ضرورى •

ـ ان أحدا لا يحتاج الى هذه الضرورة •

ـ بما أن السجون ومستشفيات المجـــانين موجودة فلا بد لأحد ما أن يشغلها ، ان لم تكن أنت فأنا ، وان لم أكن أنا فغيرى• فلننتظر الى أن يجيء الوقت الذى لن تكون فيه سجون ولا مستشفيات مجانين وعندئذ لن يكون هناك قضبان ولا « قمصان » مجانين ، وان عاجلا أو آجلا سيجيء هذا الوقت •

فابتسم ايفان ديمترتش وقال ناظرا شزرا :

ـ أتهزأ ؟ لا دخل لهؤلاء السادة أمثالك وأمثـــال نيكيتا بهذا المستقبل ، ولكنى أؤكد لك يا سيدى المحترم أن المستقبل السعيد سيجيء ، من الجـــائز أن تعبيرى غـير سام ، ولك أن تضحك اذا شئت ولكن الفجـر الجـديد سيبزغ ، وسيرتفع علم الحق ، وستكون الاعياد فى كل مكان ، لن أعيش لأرى هذا الزمن ولكن الأحفاد سيرونه ،

انى أحييهم وأفرح لهم بكل وجدانى ! الى الأمام !وليساعدكم الله يا أصدقائى !

ونهض ايفان ديمترتش ولمعت عيناه ومد يديه الى النافذة وواصل بفرح طاغ :

– انى أباركك من وراء هذه القضبان ! فليعش الصدق ! انى فرح !

وخيل لاندريه يفيمتش أن حركات ايفان ديمترتش مسرحية ، وفى نفس الوقت أعجب بها ، ورد عليه قائلا :

– انى لا أجد أى سبب للفرح ، صحيح سيجىء الوقت الذى تختفى فيه السجون ومستشفيات المجانين ، وسيرتفع – كما قلت – علم الحق والصدق ، ولكن مضمون الأشياء لن يتغير وستظل قوانين الطبيعة كما هى ،والانسان سيظل يمرض ويهرم ويموت كما هو الحال الآن ، ومهما أضاءت الأنوار حياتك ففى النهاية ستوضع فى تابوت ويقذف بك فى حفرة ٠

– والأبدية ؟

– ايه ٠٠ لا داعى !

– أنت لا تؤمن – أما أنا فمؤمن ٠ لقد قيل على لسان أحد أبطال دوستيفسكى أو فولتير – لا أذكر – أنه لو لم يكن هناك اله لاخترعه الناس ، وأنا أومن بعمق أنه ان لم تكن هناك حياة أبدية فان العقل الانسانى سيخترعها ان عاجلا أو آجلا ٠

فابتسم أندريه يفيمتش معجبا وقال :

ـ من حسن حظك أنك تؤمن ، ان من يملك هذا الايمان يستطيع أن يعيش حتى لو كان مقيدا أو مصلوبا على جدار . هل نلت قسطا من التعليم ؟

ـ أجل . كنت أدرس فى الجامعة ولكن لم أكمل دراستى بها .

ـ انك انسان مفكر ومتمعن ، وأيا كانت الظروف فانك تستطيع أن تجد الهدوء داخل ذاتك ، ان التفكير الحر العميق والتفهم الدقيق لاحداث العالم الغبية لأسمى متعة للانسان . وانت تستطيع الحصول عليها حتى اذا كنت مقيدا وراء ثلاثة جدران . لقد أمضى ديوجينوس(١) حياته فى برميل ولكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم .

فقال ايفان ديمترتش غاضبا :

ـ لقد كان ديوجينوس هذا حمارا .

ثم حنق فجأة ونهض من على سريره وأضاف :

ـ لماذا تكلمنى عن ديوجينوس وعن تمعن غير ذى معنى ؟ انى أحب الحياة ، أحبها بعمق ! صحيح اننى أقاسى من تصور اننى مطارد وأحس دائما بخوف مضن ، ولكننى

---

(١) ديوجينوس ـ فيلسوف يونانى (٤٠٤ ـ ٣٢٣ ق.م.) ، تجنب العالم وقضى الجزء الاكبر من حياته فى برميل . ويقال انه كان يحمل مشعلا بالنهار ليبحث عن انسان يستحق ماتعنيه هذه الكلمة ـ المترجم

أشعر أحيانا بعطش قوى للحياة وعندئذ أخاف من أن أجن ان لى رغبة فظيعة فى الحياة ، رغبة فظيعة !

وبدأ السير جيئة وذهابا بطول العنبر وقال مخفضا صوته :

ـ أحيانا أرى الاشباح ·· فأتصور أناسا يجيئون الى وأسمع أصواتا وموسيقى ، ويهيأ لى أننى أتجول فى الغابات أو على شاطىء البحر ، وعندئذ أتوق بكل وجدانى الى مشاكل الحياة ومشاغلها ·· اخبرنى من فضلك ·· ماذا هناك من جديد ؟ ماذا هناك ؟

ـ هل تسأل عن المدينة أو عموما ؟

ـ أولا حدثنى عن المدينة ثم عن كل شىء ·

ـ حسن ، فى المدينة ضجر لا نهائى · لا تستطيع أن تجد انسانا يمكنك التحدث معه ·· لا جديد ، آه من زمن قريب جاء طبيب جديد · خوبوتوف ·

ـ أجل اعلم ، ماذا عنه ؟ قفل ؟

ـ أجل ، انسان غير مثقف · شىء غريب ·· ان الحركة الثقافية والفكرية فى مدننا الكبرى تتطور ، ولكنهم دائما يرسلون الينا أناسا قلتهم أفضل · يا لها من مدينة بائسة !

ـ أجل مدينة بائسة !

وتنهد ايفان ديمترتش وضحك ثم سأل :

ـ وعموما ٠ كيف الحال ؟ هـــــل هناك جديد فى الصحف والمجلات ؟

كان الظلام قد خيم فى العنبر ، نهض الطبيب وصار يتحـــدث واقفا عما يكتب فى الخـارج ، وعن التطورات والاتجاهات الفكرية فى روسيا ٠ وكان ايفان ديمترتش يستمع بانتباه ويستفسر من حين لآخر ، وفجأة أمسـك رأسه بكلتا يديه كمن تذكر شيئا فظيعـــا ٠ ورقد على سريره معطيا ظهره للطبيب الذى سأله :

ـ ماذا حدث ؟

فرد عليه ايفان ديمترتش بفظاظة :

ـ لن أقول لك كلمة أخرى ! اتركنى !

ـ ولكن لماذا ؟

ـ قلت لك اتركنى ! يا للشيطان !

فهز أندريه يفيمتش كتفه متعجبـــا وخرج ، وفى المدخل قال :

ـ ماذا لو نظف المكان يا نيكيتا ٠٠ فالرائحة ثقيلة الى حد فظيع !

ـ أوامر سيادتكم !

وأخذ الطبيب يفكر متجها الى مسكنه « ياله من شاب لطيف ! على ما أظن انه أول من يمكن التحدث معهم ممن قابلتهم طوال مدة خدمتى هنا ٠ انه يجيد المناقشـــة

والحوار ، كما انه يهتم بما يجدر الاهتمام به » ٠

وأخذ يفكر فى ايفان ديمترتش طوال فترة القراءة حتى توجه للنوم ، وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى تذكر انه بالأمس تعرف الى رجل ذكى شيق ، وقرر أن يكرر زيارته له فى أقرب فرصة ٠

- ١٠ -

وجد الطبيب ايفان ديمترتش راقدا تماما كما تركه بالأمس ، رأسه بين يديه ، ثانيا ركبتيه ، ووجهه شديد الشحوب ، فبادره الطبيب قائلا :

ـ سعدت مساء يا صديقى ، هل أنت مستيقظ ؟

فأجاب ايفان ديمترتش ووجهه على الوسادة :

ـ أولا : أنا لست صديقك ، ثانيا : ان مجهوداتك ستذهب سدى ، فلن تحصل منى على كلمة واحدة ٠

فخجل أندريه يفيمتش وقال :

ـ غريبة ٠٠ لقد كنا نتحدث بالأمس فى منتهى التفاهم وفجأة ولسبب لم أفهمه قطعت الحديث ٠٠ قد أكون أسأت التعبير أو قد تكون احدى أفكارى لا تتوافق مع معتقداتك ٠٠٠

ـ أتظنني سأصدقك !

ورفع ايفـــــان ديمترتش وجهه ونظر الى الطبيب مستهزئا وقلقا ، وكانت عيناه محمرتين ، وأضاف :

ـ تستطيع أن تتجسس أو تستجوب في مكان آخر أما هنا فلن تتوصل لشيء ، لقد اكتشفت سبب حضورك الى هنا منذ الأمس .

فابتسم الطبيب قائلا :

ـ ياله من خيال ! اذن أنت تعتبرني جاسوسا .

ـ أجل .. جاسوس أو طبيب مكلف باستجوابي كلتا الحالتين سواء .

ـ اعذرني ، يا لك من انسان .. غريب !

وجلس الطبيب على مقعد بجوار السرير وهز رأسه معاتبا وقال :

ـ لنفرض انك على حق ، لنفرض اني أريد الايقـاع بك وتسليمك للشرطة . ثم يقبضون عليك ويحاكمونك، فهل المحكمة أو السجن أسوأ لك من هنا ؟ واذا سجنت أو نفيت الى سيبيريا فهل هذا أسوأ من الحياة في هـــذا المكان ؟ لا أظن .. لم اذن تخاف ؟

ويبدو ان هذه الكلمات أثرت في ايفان ديمترتش فجلس بهدوء .

وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر ـ ذلك الوقت

الذى يسير فيه اندريه يفيمتش فى أرجاء مسكنه ومن وقت لآخر تسأله دار يوشكا « ألم يحن وقت البيرة بعد؟» وكان الجو بالخارج هادئا صحوا . وقال الطبيب :

ـ لقد خرجت بعد الغداء لأتجول ، ففكرت أن أزورك الدنيا ربيع .

فسأل ايفان ديمترتش :

ـ أى شهر الآن ؟ مارس ؟

ـ نعم أواخر مارس .

ـ هل الأرض مازالت موحلة ؟

ـ ليس تماما . بل ان طرق الحديقة قد جفت .

ففرك ايفان ديمترتش عينيه كمن استيقظ من النوم وقال :

ـ انه لوقت مناسب لأن يركب المرء عربة ويتوجه بها الى الضواحى للنزهة ، ثم يعود الى المنزل ليجلس فى غرفة مكتب مريحة ودافئة و ... ويتعالج عند طبيب محترم من الصداع الدائم ... من مدة طويلة لم أذق طعم الحياة الانسانية ، ان الحياة هنا مقرفة ! غير محتملة ! يا للقرف !

كان ايفان ديمترتش مرهقا بعد انفعالات الامس لذا كان يتكلم بلا رغبة وكانت أصابعه ترتجف ويبدو أنه يعانى من صداع حاد ، وقال اندريه يفيمتش :

ـ لا فرق أبدا بين غـرفة مكتب مريحة دافئة وبين هذا العنبر ، فالانسان يجد الهـدوء والراحة داخل ذاته لا خارجها ٠

ـ كيف هذا ؟

ـ ان الانسان العادى هو الذى يتوقع الخير والشر من خارج ذاته أى من عربة أو غرفة مكتب مثلا ، أمـا الانسان المفكر فيجد كل شيء داخل ذاته ٠

ـ اذهب وانشر فلسفتك هذه فى اليونان حيث الجو دافىء معبأ برائحة الزهور ، أما هنا فالطقس لا يناسبها مع من تحدثت أمس عن ديوجينوس ؟ معك ؟

ـ أجل ٠ معى ٠

ـ لم يكن ديوجينوس فى حاجة الى غرفة مكتب أو الى بيت دافىء فالجو فى اليونان حار ٠ فليرقد فى البرميل وليأكل البرتقال والزيتون ، أما لو كان يعيش فى روسيا لجرى بحثا عن مسكن دافىء فى مايو لا فى ديسمبر والا لتجمد من البرد ٠

ـ لا ، لست على حق ٠ ان الانسان يســتطيع الا يشعر بالبرد أو بأى ألم آخر ٠ لقد قال مارك أفريل (١) « الألم هو تصور حى للألم ، فلتستخدم قوة ارادتك لتغيير

---

(١) مارك أفريل (١٢١ ـ ١٨٠) امبراطور رومانى وفيلسوف
المترجم

هذا التصور ، ولتتخلص منه ، ولتمتنع عن الشكوى ، حينئذ سيختفي الألم » وهذا صحيح · ان الفرق بين الحكيم أو الانسان المفكر المتمعن وبين الانسان العادى هو أن الأول يحتقر الألم فهو دائما راض لا يستنكر شيئا ·

ـ اذن فأنا معتوه اذ أنى أتألم ، ولأنى غير راض ، ولأنى استنكر النذالة ·

ـ لا داعى لكل ذلك ، انك اذا اكثرت فى التفكير العميق ستجد أن كل ماهو خارج ذاتك وأن كل مايضايقك فى منتهى التفاهة ، يجب عليك أن تهدف دائما الى التعقل فهو الخير الحقيقى ·

ـ التعقل ·· الخارج ، الداخل ·· آسف ولكنى لا أفهم ذلك ·

ثم نهض ونظر الى الطبيب بغضب وواصل :

ـ أنا أعلم فقط ·· أنا أعلم أن الله خلقنى من دم دافىء وأعصاب · نعم ! ان النسيج العضوى لا بد وأن يتجاوب ويتفاعل مع المؤثرات الخارجية ، وانى لأتجاوب فاذا شعرت بالألم أصرخ وأبكى ، واذا رأيت النذالة أغضب ، واذا رأيت الوضاعة أحس بالغثيان · وفى رأيى أن ذلك بالذات هو الحياة ، وكلما كان الحى أوضع قل احساسه وقل تجاوبه مع المؤثرات الخارجية ، وكلما كان أسمى كان أكثر تأثرا وكان تجاوبه مع الواقع أسرع ، كيف لا تعلم ذلك ؟ طبيب ولا تفهم هذه الأشياء البسيطة !

واذا أراد الانسان أن يحتقر الآلام وان يكون دائما راضيا مطمئنا لا بد له أولا أن يصل لمثل هذه الحالة .

وأشار الى الفلاح السمين، على السرير المجاور ، وواصل :

ـ أو لا بد أن يعود نفسه على تحمل الآلام لتلك الدرجة التى يفقد عندها الاحساس بالألم أى بكلمة أخرى أن يكون فى حكم الميت . اعذرنى أنا لست حكيما أو فيلسوفا ولا أفهم شيئا فى هذا الموضوع .

وأضاف حانقا :

ـ أنا لا أستطيع أن أناقش هذا الموضوع .

ـ بالعكس ان مناقشتك ممتعة .

ـ لقد كان المشاءون (١) ـ الذين تدافع عن فلسفتهم ـ رجالا عظاما ، ولكن تعاليمهم هذه قد توقفت عن التطور من الفى عام ، ولن تتطور لأنها غير عملية ولا تناسب الحياة ، انها لاقت النجاح ـ فقط عند أقلية من الناس يقضون حياتهم فى تحصيل ومناقشة أية تعاليم .

أما الأغلبية فلا تفهمها . ان تلك التعاليم التى تدعو لعدم الاهتمام بالمال وملذات الحياة ، والى احتقار الآلام والموت

---

(١) المشاءون ـ الفلاسفة اليونانيون أتباع المدرسة المشائية التى أنشأها أرسطو ـ المترجم .

غير مفهـومة تماما بالنسـبة للأغلبية الساحقة ذلك لأن هذه الأغلبية لم تعرف لا المال ولا الملذات ، أما أن تحتقر الآلام فهـذا يعنى أن تحتقر الحياة ذاتهـا ، لان كيان الانسان كله يتكون من الاحساس بالجوع والبرد والاحزان والاحساس بخوف هاملت من الموت ، فهذه المشاعر هى الحياة ومن الممكن أن يقاسى منها الانسـان وان يكرهها ولكنه لايستطيع أن يحتقرها . لذا فانى أكرر : لامستقبل لهذه التعاليم ، وفى نفس الوقت من أول القرن نرى تطور فلسفات النضال والاحساس بالألم والمقدرة على التجـاوب مع الواقع ..

وفجأة فقد ايفان ديمترتش تسلسل أفكاره فتوقف، وحك جبينه بغضب ثم واصل :

ـ كنت اريد ان اذكر شيئا هاما ولكن الامر اختلط على . عمـا كنت اتكلم ؟ آه ! انى اقول : لقـد باع احد المشائين نفسه كعبد ليحرر انسانا عزيزا عليه ، اذن كما نرى حتى المشاءون يتأثرون بالعوامل الخارجية لانه من الضرورى لكى يقوم الانسان بعمل سام كافناء ذاته من أجل الغير ان تهتز وتتعذب روحه ، ولو انى لم أنس هنا فى السجن كل ما تعلمته لذكرت لك أمثلة أخرى . فلنأخذ مثلا المسيح ؟ لقد كان المسيح يتجاوب مع الاحداث ، كان يبـكى ويبتسم ويحزن ويغضب بل ويشتاق ، وعنـدما قادوه للصلب لم يكن يبتسم احتقارا للموت بل صلى للرب

فى حديقة جستيمانى ليقيه كأس المنون • ثم ضحك ايفان ديمترتش وجلس وواصل :

ـ لنعتبر ان الانسان يجد الهدوء والراحة فى داخل ذاته ولنعتبر انه من الضرورى احتقار الآلام والاحتفاظ بالسكينة ، فعلى اى اساس تبشر انت بهذه الفلسفة ؟ أحكيم أنت ؟ أفيلسوف أنت ؟

ـ لا انا ليست بفيلسوف ، ولكن على كل انسان أن ينشر هذه التعاليم لأنها صحيحة •

ـ ولكنى أريد أن أعلم ، لماذا تعتبر نفسك عالما ببواطن الأمور فى موضوع تعقل الحياة واحتقار الآلام ؟ هل قاسيت الآلام قبلا ؟ هل عندك فكرة عن العذاب ؟ هل مثلا كانوا يضربونك صغيرا ؟

ـ لا ، لقد كان والداى يحتقران العقاب الجسمانى •

ـ أما أبى فقد كان يضربنى بقسوة ، لقد كان رجلا لا يعرف التفاهم ، موظفا جادا بأنف طويل ورقبة صفراء• ولكن دعنا نتحدث عنك• طوال حياتك لم يمسسك أحد بأصبعه ، ولم يخفك أو يضربك أحد ، وأنت صحيح قوى كالثور ، ولقد ترعرعت تحت رعاية والدك وتعلمت على نفقته وبعد ذلك رأسا حصلت على الوظيفة ، وتعيش أكثر من عشرين عاما فى مسكن حكومى مجانى مزود بمدفئة ونور وخادم ، ثم ان لك الحق فى أن تعمل المدة التى تحلو لك بل تستطيع ألا تفعل شيئا اطلاقا • وأنت

بطبعك انسان كسـول ضعيف الارادة لذا فقد رتبت
حياتك بحيث لا يقلقك ولا يحركك من مكانك شيء ، ولقد
تركت العمل كله لكبير الممرضين ولبقية أنذال المستشفى
وظللت أنت فى الدفء والهـدوء ، تجمع النقـود وتقرأ
الكتب وتتلذذ بالتفكير العميق فى الترهات السـامية ،
(وبعد أن نظر ايفان ديمترتش الى أنف الطبيب الأحمر)
كما أنك تحب الخمر ، وبكلمة واحدة أنت لم تر الحيـاة
ولم تعرفها بتـاتا ، وكل معـلوماتك عن الواقع نظـرية .
أنت تحتقر الآلام ولا تستنكر شيئـا لسبب بسيط : لا
معنى لشيء ، الداخليات والخارجيات ، احتقـار الحياة
والآلام والموت ، التفهم والتعقل ، الخير الحقيقى — كل
هذا يكون الفلسفة المريحة بالنسبة للكسول الروسى. فاذا
رأيت مثلا فلاحا يضرب زوجته، لماذا أتدخل؟ فليضربها فأخيرا
سيموتان ، ثم ان الضارب لا يحقر المضروب بقدر ما يحقر
نفسه ، من الغباء واللا أخلاقية أن يسكر الانسان ولكنه
سـيموت سـواء شرب أم لم يشرب . تأتى امرأة الى
المستشفى لأن أسنانها تؤلمها .. وماذا فى هذا ؟ ان الألم
هو تصور للألم ، ثم انه لا يمكن للانسان أن يعيش فى هذا
العـالم بلا مرض ، وسنموت جميعا ، لذا اذهبى بعيـدا
يا امرأة لا تعطلينى عن أن أفكر وأشرب الفودكا . ويسألك
شاب « ما العمـل ؟ كيف أعيش ؟ » اذا تلقى غيرك هـذا
السؤال فانه قبل أن يجيب يفكر قليلا ، أما عندك فالرد
جاهز « التفهم والتعقل والخير الحقيقى » . ولكن ماهى

هــذه الخرافه التى تسميها « الخير الحقيقى » بالطبــع لا جواب . اننا هنا مسجونون وراء القضبان نضرب ونعذب ولكن كل هذا عظيم وفى منتهى العقل اذ لا فرق بين هذا العنبر وبين غرفة المكتب الدافئة المريحة . انهــا لفلسفة مريحة : لا داعى للقيام بأى عمل والضمير مرتاح ، وتشعر بنفسك فى منتهى الحكمة .. لا يا سيدى المحترم انهــا ليست فلسفة أو اسلوب تفكير أو اتساعا فى النظر ، بل ان ذلك لكسل وافلاس فكرى وأحلام غبية .. أجل !

ثم غضب ايفان ديمترتش مرة أخرى وواصل :

ـ أتحتقر الآلام ؟ انك ـ فى الغالب ـ ستصرخ بكل صــوتك اذا أقفل البــاب على أصبعك ! فابتسم أندريه يفيمتش بطيبة وقال :

ـ وقد لا أصرخ .

طبعا ! واذا أصبت بشلل ، أو اذا استغل أى سفيه وضعه أو مركزه فأهانك أمام الناس، وكنت تعلم أنه لن يعاقب على ذلك ، لرأينا كيف ستستطيع أن تنصح الآخرين بالتعقل والبحث عن الخير الحقيقى !

فضحك أندريه يفيمتش مسرورا وفرك يديه قائلا :

ـ شيء لطيف ! اننى مندهش ومسرور من حبسك للتعميم ، أما الصورة التى رسمتها لى فرائعة ، اننى أعترف أن الحوار معك يشعرنى بالغبطة . حسنا لقد أنصت اليك ، والآن أرجو أن تنصت الى ..

- ١١ -

واستمر الحديث ساعة أخرى ، ويبدو أنه ترك فى نفس أندريه يفيمتش أثرا عميقـــا فأصبح يزور العنبر يوميا ٠ وكان يتوجه الى هناك صباحا وبعد الغداء وكثيرا ما كانا يواصلان الحديث الى المساء ٠ وفى مبدأ الامر كان ايفان ديمترتش يخاف الطبيب ويشك فى نواياه بل كان يظهر عدم ميله له ، ولكنه بمرور الوقت تعود عليه وغير طريقته الجافه فى الحديث فصار يتحدث اليه بلين وتهكم ٠

وسريعا ما انتشرت فى المستشفى اشاعة بأن الدكتور اندريه يفيمتش أصبح يزور العنبر رقم ٦ ، ولم يستطع احد لا كبير المرضين ولا نيكيتا ولا الممرضات ان يفهم ٠ لم يزور الطبيب العنبر ؟ ولم يجلس هناك بالساعات ، وعم يتحدث ، ولم لايكتب روشتات للمرضى بالعنبر ؟٠ وكانوا يتعجبون من تصرفاته ، وكثيرا ما كان ميخائيل افريانتش لا يجد الطبيب فى مسكنه ولم يكن ذلك ليحدث ابدا ، كما ان داريوشكا أصبحت في منتهى القلق من ان الطبيب صار يشرب البيرة فى أوقات مختلفة بل صار يتأخر أحيانا عن ميعاد الغداء ٠

ومرة ، فى أواخر يونيو توجه الدكتور خوبوتوف الى اندريه يفيمتش لسبب ما ولم يجده فى مسكنه فتوجه الي الفناء الخارجى ليسأل عنه فأخبروه انه ذهب الى المجانين، دخل خوبوتوف الى المبنى الصغير وتوقف فى مدخله حيث سمع ايفان ديمترتش يقول بغضب :

ـ لن نتفق أبدا ، ولن تستطيع أن تجعلنى أومن بمعتقداتك ، فانك لا تعرف الحياة اطلاقا ، ولم تقاس الآلام بل قضيت حياتك بجوار آلام وجروح الآخرين كدودة العلق أما أنا فأقاسى الآلام من ميلادى للآن دون انقطاع ، لذا فانى أقول بصراحة : أنا أعتبر نفسى أسمى وأكثر علما منك من جميع النواحى • انك لا تستطيع أن تعلمنى •

فقال اندريه يفيمتش بصوت خافت وبضيق من ان محدثه لم يفهمه :

ـ ليس لى غرض بتاتا فى ان اجعلك تؤمن بمعتقداتى، ليس هذا هو المهم ، وليس المهم انك قاسيت الآلام ولم اقاسها أنا ، فالعذاب والفرح غير أبديين فلنتركهما • المهم اننا نفكر وان كلا منا يجد فى الآخر انسانا قادرا على التفكير والمناقشة وهذا يجعلنا متضامنين مهما اختلفت وجهات نظرنا • آه لو تعلم يا صديقى كم كرهت الجنون العام عند الناس وعدم صلاحيتهم وغبائهم وكم يسعدنى الحوار معك انك انسان ذكى وانى لأتلذذ بك •

فوارب خوبوت الباب ونظر الى الداخل فرأى ايفان

ديمترتش بطاقيته والدكتور أندريه يفيمتش جالسين متجاورين على السرير ، المجنون يحرك قسمات وجهه بشدة وينتفض ويلملم معطفه حول جسده باضطراب ، اما الطبيب فيجلس دون حركة ، رأسه على صدره ، ووجهه أحمر يظهر عليه تعبير العجز والحزن ، فهز خوبوتوف كتفيه وابتسم مستهزئا ونظر الى نيكيتا الذى هز كتفيه هو الآخر ·

وفى اليوم التالى حضر خوبوتوف مع كبير الممرضين الى المبنى الصغير حيث وقفا فى المدخل يسترقان السمع ·

وعندما خرجا قال خوبوتوف :

ـ يبدو أن الجد قد خرف تماما ·

فتنهد سرجيى سرجيتش قائلا :

ـ غفرانك يا رب !

ثم تحاشى فى سيره نقرة مليئة بالمياه القذرة حتى لا يتسخ حذاؤه اللامع وأضاف :

ـ الحقيقة يا يفجينى فيودرتش المحترم انى أتوقع ذلك من زمن !

- ١٢ -

أصبح أندريه يفيمتش يلاحظ أشياء غريبة ، فعندما يقابله عمال وممرضات المستشفى ينظرون اليه بتساؤل ثم يتهامسون ، وقبلا عندما كان يقابل ماشا ـ طفلة أمين

المخزن ـ فى حديقة المستشفى كان يمسح على شـــعرها ويداعبها ، أما الآن فانها تهرب منه عندما تجده يتقـــدم اليها مبتسما ، كذلك لم يعد ميخائيل أفريانتش يكرر عندما يستمع الى الطبيب « صحيح تماما » بل صار يتمتم بخجل « أجل ·· أجل ·· » وأصبح ينظـر اليه طويلا وبحـزن ولسبب ما صار ينصـحه بعـدم شرب الفودكا والبـيرة ، ولكنه كرجل مهذب كان يقدم نصائحه بطريق غير مباشر فمثلا يحـكى عن أحـد الضـباط أو عن أحـد رجال الدين ـ ناس طيبون ـ كانوا يشربون فمرضوا ثم تركوا الشرب فصفوا تماما · كما زاره خوبوتوف مرتين أو ثلاث وأخـذ ينصحه بترك المشروبات الروحية وأصبح يوصيه ـ دون ابداء اسباب ـ بأن يتناول محلول بروميد الصوديوم ·

وفى أغسطس تلقى أندريه يفيمتش خطابا من عمدة المدينة يرجوه فيه الحضور الى مقر مجلس المدينة لأمر هام ، وعندما ذهب أندريه يفيمتش فى الميعاد المحدد وجد هنـاك قائد وحدة الجيش بالمدينة وناظر مدرسة المدينـــة وأحد أعضاء مجلس المدينة وخوبوتوف ورجلا أبيض ممتلئا قدموه له كطبيب يقيم ويعمل فى مصنع يبعد ثلاثين فرسخا عن المدينة وكان موجودا فى المدينة بالصدفة ·

وبعد ان جلس الجميع حول مائدة الاجتمـــاعات قال عضو مجلس المدينة موجها حديثه لأندريه يفيمتش :

ـ عندنا طلب مقدم من يفجينى فيودرتش خوبوتوف

يقول فيه ان الصيدلية فى مبنى المستشفى الرئيسى صغيرة ويجب نقلها الى أحد المباني الصغيرة الملحقة بالمستشفى طبعا لا مانع من نقلها ولكن لابد من اجراء بعض الاصلاحات فى ذلك المبنى .

ففكر أندريه يفيمتش وقال :

ـ أجل ، لا بد من اجراء بعض الاصلاحات وسيكلفنا نقلها مثلا الى المبنى الموجود عند الناصية خمسمائة روبل كحد ادنى ، وهذه مصروفات غير انتاجية .

وبعد صمت قليل واصل اندريه يفيمتش بصوت منخفض :

ـ لقد تشرفت بعرض تقرير عن المستشفى من حوالى عشر سنوات قلت فيه ان المستشفى بوضعه الحالى يعتبر باهظة التكاليف بالنسبة للمدينة ، لقد انشئت فى الاربعينيات ولكن ميزانية المدينة عندئذ كانت غيرها الآن ، ان المدينة تنفق الكثير على مبانى غير ضرورية وعلى وظائف زائدة عن الحاجة وفى رأيى ان المدينة بنفس هذه الميزانية فى ظروف أخرى وبطريقة أخرى تستطيع ان تنفق على مستشفيين جيدين .

فقال عضو المجلس بحرارة :

ـ فلتخلق الظروف الأخرى .

ـ لقد تشرفت بأن أطالب بتحويل ادارة المستشفى لمجلس المحافظة .

فقال الطبيب الابيض :

ـ اذا حولت النقود الى مجلس المحافظة فانها تسرق ٠

ثم ضحك ٠ فوافق عضو مجلس المدينة قائلا :

ـ هكذا جرت العادة ٠

ثم ضحك ايضا ٠ فرفع اندريه يفيمتش عينيه ببطء وقال بهدوء :

ـ لابد ان يتوخى المرء العدل فى احكامه ٠

وخيم الصمت ثانية ، ثم قدموا الشاى ، ولمس الضابط يد أندريه يفيمتش عبر المائدة بخجل شديد وقال :

ـ لقد نسيتنا تماما يا دكتور ، انك كالقديس لا تلعب الورق ولا تحب النساء لذا فان صحبتنا غير مسلية بالنسبة لك ٠

ـ ثم بدأ الجميع يتحدثون عن ان الحياة مملة فى المدينة بالنسبة للانسان المحترم ٠٠ لا مسرح ، لا موسيقى ومثلا فى حفل النادى الأخير كانت تقف عشرون امرأة فى صالة الرقص ، ومعهن رجلان فقط فالشباب لا يرقص بل يتجمع حول المقصف للشرب ، أو يلعب الورق ، وبدأ أندريه يفيمتش يتحدث بهدوء وبطء عن أنه حزين وحزين بعمق من ان أهل المدينة يفقدون طاقاتهم ويشغلون قلوبهم وعقولهم بالخوض فى أحوال الناس وبلعب الورق وليس

لديهم الرغبة فى قضاء الوقت فى الأحاديث الذكية الشيقة أو فى القراءة أى لايرغبون فى التمتع بالعقل فالعقل وحده هو الشيء الشيق الرائع ، أما باقى المتع فكلها سطحية ووضيعة ٠

وكان خوبوتوف ينصت لزميله وفجأة سأله ٠

ـ أندريه يفيمتش ، ما تاريخ اليوم ؟

وبعد أن أجاب أندريه يفيمتش أخذ خوبوتوف والطبيب الأبيض يسألانه ـ بلهجة الممتحن الغير محنك ـ الأسئلة التاليه : ما اليوم من أيام الأسبوع ؟ كم يوما فى العام ؟ وهل صحيح ما يقال عن ظهور نبى فى العنبر رقم ٦ ؟

وعندما سمع أندريه يفيمتش السؤال الأخير احمر وجهه وقال :

ـ هناك مريض ولكنه شاب ذكى شيق الحديث ٠

ثم انتهت الأسئلة على ذلك ٠

وعندما كان أندريه يفيمتش يرتدى معطفه فى المدخل وضع الضابط يده على كتفه وقال له متنهدا :

ـ يجب علينا نحن العجائز أن نستكين للراحة ٠

ولما خرج أندريه يفيمتش من مقر المجلس أدرك أن ذلك كان « كونسلتو » لاختبار قواه العقلية وتذكر الأسئلة التى وجهت اليه فاحمر وجهه ولسبب ما ولأول مرة فى حياته حزن على حالة الطب وفكر فى الطبيبين وأسئلتهما قائلا فى نفسه « يا الهى ٠ انهم من مدة قصيره فقط درسوا

منهج علم النفس وأدوا امتحانه فمن أين هـذا الجهل ؟ ليست عندهم أى فكرة عن علم النفس » ٠

وأحس بالمهانة والغضب لأول مرة ٠

وفي نفس اليوم زاره ميخائيل أفريانتش ، وبلا تحية تقدم اليه رجل البريد وأمسك بكلتا يديه ، وقال له بقلق :

ــ يا عزيزى ، يا صـديقى ، اثبت لى أنك تثق فى اخلاصى وتعتبرنى صديقك ٠٠٠ يا صديقى !

ودون أن يعطى لأندريه يفيمتش فرصة ليتكلم واصل بتوتر :

ــ انى أحبك لثقافتك وطيبة نفسك ، اسمعنى يا صديقى العزيز ، ان قوانين العلم تضطر الأطباء أن يخفوا عنك الحقيقة أما أنا فأقول الحقيقة دون مواراة ــ كالعسكريين أنت مريض ! أعذرنى ياصديقى ولكنها الحقيقة ، لقد لاحظ ذلك كل المحيطين بك ، ولقد أخبرنى الآن الدكتور يفجينى فيودرتش أنه من أجل صـحتك لا بد لك من الراحـة والاستجمام ٠ ذلك صحيح تماما ! رائع ! فى ظرف أيام سأقوم بأجازة وسأسافر لأستنشق هواء جديدا ٠ أرجو أن تثبت لى أنك صديق ولنسافر سويا ، هيا نسافر ونلهو

ــ انى أشعر بأننى صحيح تماما ، وأنا لا أستطيع السفر ، فاسمح لى أن أثبت لك صداقتى بطريقة أخرى ٠

لقد خيل له للوهلة الاولى أن فكرة السفر الى مكان ما دون أسباب ، بلا كتب ، ودون دار يوشـكا ، ودون البيرة ، هذا السفر الذى سيغير نظام حياته الذى لم يتغير

منذ أكثر من عشرين عاما ، فكرة غـير معقولة وخرافيه ، ولكنه تذكر الحديث الذى دار فى مجلس المدينة فعاد اليه مزاجه الثقيل الذى قاسى منه عند عـودته من المجلس ، فتراءت له فكرة مغادرة هذه المدينة التى يعتبره أهلهـا مجنونا فكرة لطيفة فقال :

ـ والى أين نويت على السفر ؟

ـ الى موسكو الى بطرسبرج ، الى وارسو ... لقد قضيت أسعد خمس سنوات من عمرى فى وارسو ، يا لها من مدينة رائعة ! فلنسافر يا عزيزى .

- ١٣ -

بعد أسـبوع طلب من آندريه يفيمتش أن يخلد للراحة اى ان يقدم استقالته ، فلم يحزن ، وبعد أسبوع آخر كان يجلس مع ميخائيـل افريانتش فى عربة البريد متجهين الى أقـرب محطة سكة حديد ، كان الجـو باردا والسماء صحوا والافق يطل عليهم من بعد ، وقطعا مسافة المائتى فرسخ الى المحطة فى يومين وباتا فى الطريق ليلتين وفى محطات البريد كان ميخائيل افريانتش يغضب عندما يجد أكواب الشاى غير مغسولة جيدا أو عندما يتأخر العمال فى تغيير خيل العربة ، وعندئذ كان وجهـه يحمر وكل

جسده يرتجف ويصرخ « اخرس · لا تناقش ! » ، وعندما يجلسان فى العربة كان رجل البريد يحكى عن رحلاته فى القوقاز وفى الامبراطورية البولندية · كم كانت هنـــاك مغامرات ولقاءات ! وكان يتكلم بصوت عال ويفتح عينيه بتعجب كأنه يكذب وكان يتنفس فى وجه أندريه يفيمتش ويقهقه فى أذنه ممـا ضايق الطبيب وجعـــله عاجزا عن التركيز ·

واقتصادا للنفقات سافرا فى عربة الدرجة الثـالثة لغير المدخنين ، وكان نصف المسافرين أناسا محترمين ، وسريعا ما تعرف ميخائيل افريانتش على كل الركاب وصار ينتقل من مقعد لآخر ويقول بصوت مرتفع انه لايجب على المرء ان يسافر على هذه الخطوط المتعبة ، وأن الطريق ملىء بالنشالين ! أما المتعة الحقيقية فهى السفر على ظهور الخيل تقطع فى اليوم الواحد مائة فرسخ وبعدها تشعر بنفسك صحيحا قويا ، وأن تجفيف المستنقع هو السبب فى قلة المحصول هذا العام ، وعموما فان الفوضى مستشرية · كان يتكلم عن كل ذلك بصوت مرتفع وبحدة ولا يعطى الفرصة لأحد أن يشترك فى الحديث ولقد أتعبت هـــذه الثرثرة المتصلة المصحوبة بالقهقهة والحركات التمثيلية أعصـــاب اندريه يفيمتش الذى صار يفكر بغضب « من منا المجنون ؟ أنا الذى لا أحاول ان أقلق راحة الركاب ، أم هذا الانانى الذى يظن نفسه أذكى وألطف الجميع ، ولذا لايعطى لاحد فرصة للراحة والهدوء » ·

وفى موسكو ارتدى ميخائيل افريانتش حلة عسكريه دون علامات لأى رتبة والسراويل ذات الشرائط الحمـراء وكان يسير في الشارع بالمعطف والقبعة العسـكرية مما جعل الجنود يحيونه وصار أندريه يفيمتش يفـكر انه لم يبق لهذا الرجل من آثار ومظاهر غناه الا السيىء ، فكان يحب ان يخدمه الآخرون حتى عنـدما لا تكون هناك ادنى حاجة لذلك فمثلا كثيرا ما كان ينادى على الساقى فى المطعم ليشعل له السيجارة متظاهرا بأنه لا يرىالكبريت الموجود أمامه على المنضدة ، ولم يكن يخجل من أن يسير بملابسه الداخلية أمام خادمات الفندق ، وكان يتحدث مع كل الخدم حتى كبار السن منهم باحتقار ، وعندما يغضب يسـبهم بأقبح الألفاظ ، وكان أندريه يفيمتش يرى فى ذلك مظاهر غنى لكنها مقززة للنفس ٠

وأول ما فعله ميخائيل أفريانتش فى موسكو هو أن قاد صديقه الى كنيسة ايفرسكى حيث أخذ يصلى بحرارة ويسجد ، ويبكى ، وعندما انتهى من الصلاة تنهد وقال :

ـ مع انى لا أومن الا أن السكينة تملأ نفسى بعـد الصلاة ٠ قبل الأيقونة يا عزيزى !

فشعر أندريه ويفيمتش بالخجل وقبل الأيقونة ، فمد ميخائيل أفريانتش شفتيه وهز رأسه وتمتم بالصلاة وطفرت الدموع من عينيه ثانية ، وبعد ذلك توجها الى الكرملين حيث زارا معالمه بل ولمسا بعضها ، وتمتعا بالمشاهد المشرفة على نهر موسـكوفا ، كما زارا معبـد سـباسيتل ومتحف روميانتسفسكى ٠

وتناولا الغداء في مطعم ٠٠ «تيستوف» حيث أمسك ميخائيل أفريانتش بكشف المأكولات ونظر فيه مليا ثم قال للنادل بلهجة من تعود على تناول الطعام فى المطاعم المحترمة :

ـ لنر ما ستطعمنا اليوم يا ملاكى ٠

- ١٤ -

كان الطبيب يتجول ويأكل ويشرب ولكنه كان يشعر باحساس واحد : الضيق من ميخائيل أفريانتش ، كان يرغب فى أن يستريح منه ومن صحبته ، ويود لو يختبىء منه ٠ أما الآخر فكان يعتبر أن واجبه مرافقة الطبيب باستمرار ليمنحه أكبر قدر من متع التنزه واللهو ، وأما فى الفندق فكان يرفه عنه بالحديث ، وتحمل أندريه يفيمتش هذا الوضع يومين ولكن فى اليوم الثالث أخبر صديقه بأنه مريض ويرغب فى أن يستريح اليوم بأكمله فى الفندق ، فقال الصديق انه سيبقى أيضا ٠ طبعا لابد من الراحة والا سيفقد المرء قدميه من كثرة التنزه !

رقد أندريه يفيمتش على الأريكة ووجهه للمسند ، وكز على أسنانه وصار يسمع صديقه الذى كان يحدثه بحرارة عن أن فرنسا ان عاجلا أو آجلا ستهزم المانيا ،

وأن موسكو مليئة بالنشالين ، وأنه من الصعب أن تحكم بمجرد النظر ان كان الحصان سليما ٠

فصفرت أذنا الطبيب وأسرعت نبضـــاته ولكنــه لم يستطع ــ كانسان مهذب ــ ان يطلب من صديقه ان يصمت ولحسن الحظ مل ميخائيل أفريانتش الجلوس فى الغرفة فخرج بعد الغداء للنزهة ٠

وشعر أندريه يفيمتش بالراحة التامة عندما صــار وحده ٠ يالهــا من راحة عندما يرقد الانســان على الاريكه دون ادنى حركة شاعرا أنه وحيد بالغرفة ! ان السعادة الحقيقية مستحيلة بغير الوحــدة ٠ لقد عصى ابليس ربه لأنه ــ ابليس ــ أراد الوحدة التى لا يتمتع بها بقية الملائكة وود أندريه يفيمتش أن يفكر فيما رأى وســمع فى الأيام الأخيرة ولكن ميخائيل أفريانتش لم يغادر مخيلته ، وأخذ يفكر بضيق « الغريب انه قام باجازته ورافقنى بشعور من الصداقة والتضحية ، ولــكن لا يوجــد شىء أسوأ من وصاية الصديق ٠ انه يظهر كانسان طيب مخلص مرح الا انه ممل ، ممل لدرجة غير محتملة ٠ وكثيرا ما تقابل نوعا من الناس الذين يقولون كلاما ذكيا طيبا ولكن يشعر المرء بأنهم أغبياء » ٠

وصار أندريه يفيمتش يدعى المرض فى الأيام التالية فكان يرقد على الأريكة ووجهه للمسند يتعذب اذا رفه عنه صديقه بالحديث ، ويستريح اذا غاب لقد كان غاضبا من نفســه لانه وافق على السفر ، وغاضبا من صديقه لأن

الأخير صار بمرور الوقت اكثر ثرثرة واقل تهذيبا ولم يعد يتحدث في موضوعات جادة سامية ·

وأخذ اندريه يفيمتش يفكر غاضبا من ان انتفاهات أصبحت تشغل باله « ها هو العالم الخارجي يؤثر على كما كان ايفان ديمترتش يقول · لا كل هذا غير ذى بال ··· فعندما سأعود الى منزلى سيعود كل شيء كما كان » ·

وفي بطرسبرج تكرر نفس الوضع · قضى الطبيب ايامه في غرفته بالفندق راقدا على الأريكة وينهض فقط لشرب البيرة ·

وكان ميخائيل افريانتش يلح عليه باستمرار ان يسرعا بالسفر الى وارسو ، فيقول له أندريه يفيمتش بصوت كله رجاء :

— يا عزيزى ، لماذا أسافر أنا ؟ فلتسافر وحدك ، واسمح لى بالعودة · ارجوك !

ولكن ميخائيل افريانتش كان يعارض قائلا :

— لا يمكن بأى حال من الاحوال · انها مدينة رائعة · لقد قضيت بها أسعد خمس سنوات من عمرى !

ولم يجد اندريه يفيمتش فى نفسه قوة الارادة الكافية للرفض · فسافر معه ممزق القلب وهناك لم يخرج من غرفته بتاتا · فكان يرقد على الاريكة حانقا على نفسه وعلى صديقه وعلى الخدم الذين كانوا مصممين على عدم فهم الروسية · أما ميخائيل افريانتش فكان صحيحا مرحا

كعادته ، يتنزه فى المدينة من الصباح للمساء ، ويبحث عن أصدقائه القدامى . ولم يبت فى الفندق عدة ليال ، وذات مرة بعد ليلة قضاها بالخارج عاد فى الفجر فى حالة شديدة من التهيج أحمر الوجه أشعث الشعر ، وأخذ يسير من ركن لآخر متمتما بكلمات غير واضحة ثم توقف وقال :

ـ الشرف قبل كل شيء !

وسار قليلا ثم أمسك برأسه وقال بصوت تراجيدى:

ـ أجل . الشرف قبل كل شيء ! ملعونة تلك اللحظة التى جاءتنى فيها فكرة السفر الى سوق بابل هذا . ياعزيزى فلتحتقرنى : لقد خسرت كل شيء فى القمار ! اعطنى خمسمائة روبل !

فعد أندريه يفيمتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه صامتا ، فتمتم هذا بقسم غير ضرورى وهو لا يزال أحمر الوجه خجلا وغضبا . وعاد بعد حوالى ساعتين وارتمى على المقعد وتنهد بصوت مسموع قائلا :

ـ لقد أنقذت شرفى ! فلنرحل يا صديقى ! لا توجد عندى أى رغبة فى البقاء دقيقة أخرى فى هذه المدينة الملعونة . اللصوص ! جواسيس النمسا !

وعاد الى مدينتهما فى نوفمبر حيث كان الجليد يغطى الشوارع ، وكان خوبوتوف يشغل وظيفة أندريه يفيمتش فى المستشفى ولا يزال يقطن مسكنه القديم فى انتظار عودة اندريه يفيمتش ليخلى مسكنه التابع للمستشفى ، وأصبحت المرأة الدميمة ـ التى كان خوبوتوف قد ادعى

انهـا طاهيته ـ تشـغل أحد المبانى الصـغيرة الملحقة بالمستشفى ٠

وكانت هناك اشاعات جديدة عن المستشفى ، فمثلا قيل ان المرأة الدميمة تخاصمت مع أمين المخـزن وركع الأخير على ركبتيه طالبا منها الصفح ٠

وفى أول يوم بعد العودة اضطر أندريه يفيمتش أن يبحث لنفسـه عن مسكن جديد ٠ وسـأله رجل البريد بخجل :

ـ يا صديقى ٠ أرجو المعذرة عن سؤالى الجرىء : كم لديك من النقود ؟

فعد أندريه يفيمتش ما معه من النقود وقال :

ـ ستة وثمانون روبلا ٠

فقال ميخائيل أفريانتش بخجـل وضـيق من أن الطبيب لم يفهمه :

ـ أنا لا أسأل عما معك الآن ، بل أسألك عما تملك عموما ٠

ـ لقد قلت لك ٠٠ ستة وثمانون روبلا ٠٠ ليس عندى شىء آخر ٠

ولقد كان ميخائيل أفريانتش يعتـبر أن الطبيب انسان شريف وطيب ولكنه كان يشك فى أن عنده ادخارات لا تقل عن عشرين الف روبل ، أما وقد علـم أن أندريه يفيمتش معدم ولا يملك مايعيش به بكى فجأة ، واحتضن صديقه ٠

- ١٥ -

استأجر اندريه يفيمتش بيتا صغيرا ذا ثلاث نوافذ تملكه امرأة فقيرة تدعى بيلوفا ، ويحتوى المنزل على ثلاث غرف ومطبخ ، شغل الطبيب غرفتين تطل نوافذهما على الشارع ، وشغلت داريوشكا والمرأة بأطفالها الثلاثة الغرفة الباقية والمطبخ . وأحيانا كان يأتى عشيق بيلوفا ليبيت عندها ، وكان هذا العشيق فلاحا سكيرا كثير الصياح ليلا مما يدخل الرعب فى قلوب الأطفال وداريوشكا كان يحضر ويجلس فى المطبخ ثم يبدأ يطالب بالفودكا ، وعندئذ يصبح الجميع فى غاية الضيق ، فيشفق الطبيب على الأطفال الباكين ويأخذهم ليناموا فى غرفته . وكان ذلك يجلب له سرورا جما .

وكان الطبيب كسابق عهده يستيقظ فى الثامنة ، يتناول الشاى ثم يبدأ فى قراءة كتبه ومجلاته القديمة فلم يكن لديه نقود ليشترى الجديد منها . ولأن الكتب قديمة وربما بسبب التغيير الذى طرأ على حياته لم تعد القراءة تمنحه المتعة التى كان يشعر بها قبلا ، بل أصبحت متعبة بالنسبة له ، وكى يشغل وقته بأى شىء ، بدأ فى عمل « كتالوج » لكتبه ، فأخذ يلصق على غلافها ارقاما مسلسلة وخيل له ان هذا العمل الميكانيكى البطىء ألطف من القراءة وأصبح هذا العمل بتشابهه ورتابته يهدهد أفكاره ويجعله لا يفكر في شيء وبذلك اصبح الوقت يمر سريعا ،

كذلك أصـبح الجلوس فى المطبخ وتنظيف البطـاطس أو تنقية الأرز مع داريوشكا عملا شيقا بالنسبة له • وصار يزور الكنيسة ايام السبت والاحد من كل اسبوع فيقف بجوار الحائط مسبلا عينيه يسـمع التراتيل ويفكر فى والديه ويفكر فى الجامعة وفى الاديان شـاعرا بالسكينة والحزن ، وعندما تنتهى الصلاة يخرج من الكنيسة آسفا انها انتهت هكذا بسرعة •

وقد زار المستشفى مرتين ليتحدث مع ايفان ديمترتش ولكن فى كلتا المرتين وجد ايفان ديمترتش متهيجا غاضبا بدرجة غير عادية ، وكان يطلب منه ان يتركه فى هدوء لانه لم يعد يستسيغ الثرثرة الفارغة ويقول انه يرجو من الناس الانذال الملعونين تعويضا واحدا فقط عن كل الآلام التى قاساها الا وهو السجن الانفرادى • هل سيرفض حتى هذا الرجاء ؟ وعندما كان اندريه يفيمتش يودعه راجيا له ليلة هادئة كان الآخر يرد بغضب :

ـ اذهب الى الشيطان !

ولم يكن اندريه يفيمتش يدرى : أيعاود الزيارة ، بالرغم من انه يودها •

وقبـلا كان الطبيب يسـير فى الحجرات مفكرا ، أما الآن فأصبح يرقد بعد الغداء حتى موعد شاى المساء ، كان يرقد ووجهه للحـائط يفـكر فى المسائل البسـيطة التى لايستطيع لها درءا • لقد كان يحز فى نفسه انه لم يمنح معاشا ثابتا أو حتى مكافأة عن مدة خدمته التى تزيد على

العشرين عاما • صحيح انه لم يعمل بأمانة ولكن كل الموظفين ينالون معاشا سواء عملوا بشرف أو بدون شرف • ان العدالة حاليا تتلخص فى أن الحكومة لا تكافىء بالمناصب والأوسمة والمعاشات الموظف الجيد بل تكافىء بها العمل الحكومى عموما جيدا كان أو سيئا • فلم شذ هو بالذات عن هذه القاعدة ؟ لقد أصبح معدما تماما ، فصار يخجل من أن يمر أمام حانوت البقال وان ينظر الى صاحبة المنزل اذ كان مدينا للأول باثنين وثلاثين روبلا ثمنا للبيرة كما كان مدينا أيضا للمرأة ، وكانت داريوشكا تبيع سرا الملابس القديمة وبعض الكتب وتدعى أمام صاحبة المنزل أن الدكتور قريبا سيحصل على مبلغ كبير من المال •

وكان غاضبا على نفسه لأنه أنفق على الرحلة الالف روبل التى ادخرها • كم يكون هذا المبلغ مفيدا الآن ! كما كان حانقا لأن الناس لايتركونه فى هدوء ، فكان خربوتوف يعتبر أن من واجبه زيارة زميله المريض ، وكان أندريه يفيمتش يكره فيه كل شىء : وجهه الممتلىء الشبع ولهجته وطريقة كلامه السيئة « المتواضعة » وكلمة «يازميل المهنة» وحذاءه ذا الكعب العالى ، أما أسوأ ما فيه فهو أنه كان يعتبر نفسه مسئولا عن علاج أندريه يفيمتش ، بل كان يظن أنه فعلا يعالجه ، فكان يحضر معه فى كل زيارة قنينة بروميد الصوديوم وحبوبا من دواء آخر •

وكان ميخائيل أفريانتش كذلك يعتبر أن من واجبه زيارة صديقه ليرفه عنه ، فكان يدخل عليه كل مرة متصنعا

رفع الكلفة ويقهقه بافتعال ثم يؤكد لصديقه أنه اليوم يبدو رائعا، والحمد لله أن الحال يتحسن والشفاء التام قريب، مما يثبت أنه كان يعتبر أن حالة صديقه ميئوس منها • وقد كان يشعر بالخجل العميق لأنه لم يرجع قرض وارسو بعد، ولاخفاء خجله كان يحاول أن يقهقه بصوت أعلى وأن يقص فكاهات أكثر ، وبدت قصصه وفكاهاته لا نهائية مما كان يعذب أندريه يفيمتش ويعذبه هو نفسه • وفي حضوره كان أندريه يفيمتش يرقد على السرير ووجهه للحائط ، يسمع ويعض نواجذه ، ويشعر بأنه يغلي من الداخل ، وبعد كل زيارة يشعر أن هذا الغليان يرتفع حتى ليكاد يخنقه •

ولكي يحرر نفسه من هذه الاحساسات التافهة ، كان يفكر أنه هو وخوبوتوف وميخائيل أفريانتش سيموتون جميعا ان عاجلا أو آجلا ، ولن يتركوا وراءهم حتى البصمات ، واذا تصور المرء أنه بعد مليون عام مرت روح ما بجوار الكرة الأرضية فلن ترى الا التربة والصخور الجرداء ، فسيختفي كل شيء — حتى الحضارة والقوانين الأخلاقية — بلا أي أثر ، فلم الخجل اذن من البقال ، ولم الغضب من خوبوتوف الحقير أو من صداقة ميخائيل أفريانتش الثقيلة ؟ كل هذا كلام فارغ وترهات •

ولكن هذه الأفكار لم تعد تساعده ، فعندما يرسم في مخيلته صورة الكرة الأرضية بعد مليون عام بصخورها الجرداء فمن وراء احداها يظهر له خوبوتوف بحذائه ذي

الـكعب العـالى ، أو يظهر ميخـائيل أفريانتش بقهقهته المفتعلة ، بل يخيـل اليه أنه يسمع همسـا خافتا خجلا « سأرد لك قرض وارسو قريبا ٠٠ كن متأكدا » ٠

- ١٦ -

وذات يوم حضر ميخائيل أفريانتش بعد الغداء عندما كان أندريه يفيمتش راقدا على سريره ، وبالصدفة ظهر فى نفس الوقت خوبوتوف ومعه بروميد الصـوديوم ، فنهض أندريه يفيمتش متثـاقلا وجلس على السرير واضـعا يديه تحت ذقنه ، وبدأ ميخائيل أفريانتش الحديث قائلا :

ـ أما اليوم يا عزيزى فلون وجهك أحسن كثيرا من الأمس ٠ أجل أنت رائع ! أى والله رائع !

فقال خوبوتوف متثائبا :

ـ لقـد حان الوقت ٠ حان الوقت يا زميلى ، فلا بد انك مللت هذه اللعبة ٠

فقال ميخائيل افريانتش بمرح :

ـ طبعـا سنشفى ! بل وسـنعمر لمـائة عام ! ماذا تظن ؟

فقال خوبوتوف :

ـ مائة عام أو أقل ، المهم صحته تكفيه لمدة عشرين عاما أخرى . لا تبتئس يا زميــلى ، لا تبتئس .. لا داعى لطمس الحقائق بوضع الظلال عليها .

وقال ميخائيل افريانتش :

ـ سترى ما سنفعل !

ثم قهقه وربت بكفه على ركبة صديقه وأضاف :

ـ سترى ما سنفعل ! فى الصيف القادم ان شاء الله سنرحل الى القوقاز وسنمتطى هناك ظهور الخيل ـ تاك . تاك . تاك ! ثم نعود من القوقاز لنلهو فى حفلة الزفاف .

وغمز بعينه لاندريه يفيمتش وأضاف :

ـ سنزوجك يا صديقى العزيز .. سنزوجك ..

فشعر أندريه يفيمتش فجأة بالغليان يملؤه ويصــل لحلقه ، وتوالت دقات قلبه ، فقال :

ـ يا للترهات !

ونهض مسرعا وتوجه الى النافذة وأضاف :

ـ ألا تشعرون بأنكم تقولون ترهات قذرة ؟

وأراد أن يواصل كلامه بطريقة هادئة مهــذبة ولكنه رغم ارادته ضم يديه ورفع قبضاته الى أعلى واحمر وجهه وارتجف جسده وصرخ بصوت رهيب :

ـ اتركانى ! اخرجا ! اخرجا سويا فى الحال !

فنهض ميخـــائيل افريانتش وخوبوتوف محــدقين بتعجب ثم بخوف ، فى حين صرخ اندريه يفيمتش :

ـ اخرجا ! يا للأغبيـــاء ! يا للغباء ! لست محتاجا لصداقتك ولا لأدويتك يا غبى ! يا للحقارة ! يا للوضاعة !

وتبــادل خوبوتوف وميخـــائيل افريانتش النظرات بتعجب وتوجها للباب خارجين ، وأمسك اندريه يفيميتش بزجاجة بروميد الصوديوم وقذف بهــا وراءهم فاصطدمت بالباب وتحطمت ، وتتبعهم الى مدخل المنزل صارخا :

ـ اذهبا الى الشيطان ! الى الشيطان !

وبعد أن خرجا ظل أندريه يفيمتش ينتفض كالمحموم ويكرر :

ـ يا للغباء ! يالهم من أغبياء !

ولما هـــــدأت ثورته كان أول ما ورد على عقله أن ميخائيل أفريانتش المسكين غالبا ما يشـــعر الآن بالخجل الشديد وأنه لابد يتعذب من الشعور بالذنب ، عموما لقد حدث شيء فظيع لم يحدث قبلا مطلقا . أين العقل والمنطق؟ أين تعقل الأشياء وأين الهدوء النفسى ؟

ولم يستطع الطبيب أن ينام طول الليل من الأسى والخجل من نفسه ، وفى العاشرة صباحا توجه الى مكتب البريد واعتذر لصاحبه ، فتأثر ميخائيل أفريانتش جــدا وصافحه بقوة وقال متنهدا :

ـ لننس ما مضى ٠

وصرخ فجأة مناديا أحد السعاة صرخة جعلت كل الموظفين والعملاء ينتفضون :

ـ احضر مقعدا !

ثم صرخ فى وجه المرأة التى كانت تقـــدم له من الشباك خطابا مسجلا ، قائلا :

ـ انتظرى ! ألا ترين أنى مشغول ؟

ثم التفت لأندريه يفيمتش وقال له بهدوء ولطف :

ـ اجلس أرجوك يا عزيزى ٠

وأخـــذ رجل البريد يمسح ركبتيه بيديه لفترة ثم قال :

ـ لم أفكر فى الغضب مطلقا ، انى أفهم جيـــدا أن المرض صعب ، لقد اقلقتنا جدا حالتك بالأمس ، وتحدثنا أنا والدكتور عنك طويلا ، لماذا يا عزيزى لا تريد أن تهتم بمرضك بالجدية اللازمة ؟ هل من الممكن اهمال مثل هذا المرض ؟

وخفض ميخائيل أفريانتش صوته وأضاف :

ـ اعذرنى على صراحتى كصـــديق : انك تعيش فى ظروف غير مناسبة ، شقة ضيقة ، قذارة ، لا يهتم بخدمتك أحد ، لا تملك ثمن علاجك ٠٠٠ يا صديقى العزيز ، انا نتوسل اليك أنا والدكتور من كل قلبينـــا أن تســـمع

لنصيحتنا وتدخل المستشفى فستجد فيها الغذاء الصحى والعناية والعلاج ، صحيح أن يفجينى فيودرتش جلف ، الا أنه ـ فيما بيننا ـ طبيب جيد من الممكن الاعتماد عليه، لقد وعدنى بأنه سيهتم بك ٠

فتأثر أندريه يفيمتش تأثرا بالغا من الاهتمام الصادق ومن الدموع التى طفرت من عينى رجل البريد ، فقال بصوت منخفض واضعا يده على صدره :

ـ لا تصدق ! لا تصدقهم ! ان هذا خداع ! ان مرضى الوحيد هو أني خلال عشرين عاما لم أجد فى كل المدينة الا انسانا ذكيا واحدا ولكنه مجنون ، ليس عندى أى مرض ولكنى ببساطة وقعت داخل دائرة سحرية مغلقة لا يوجد منها مخرج ٠ ولكن لا فرق عندى فأنا مستعد لكل شىء ٠

ـ أدخل المستشفى يا عزيزى ٠

ـ لا فرق عندى ، اننى على استعداد أن أدخل جهنم ذاتها ٠

ـ أعطنى كلمة يا عزيزى انك ستطيع يفجينى فيودرتش فى كل شىء ٠

ـ فليكن ، أعدك ٠ ولكنى أكرر لقد وقعت فى دائرة سحرية مغلقة ٠ والآن كل شىء حتى العطف والاهتمام المخلص من جانب اصدقائى يؤدى الى نتيجة واحدة ٠ يؤدى الى هلاكى ٠ انني أهلك وعندى الشجاعة الكافية لأدرك ذلك ٠

ـ ستشفى يا عزيزى ٠

فقال اندريه يفيمتش بضيق :

ـ لا داعى لهذا القول ، قلما يوجد الانسان الذى لا يشعر في آخر حياته بما أشعر به أنا الآن ، واذا ما قال لك احد ان كليتيك مثلا مريضتان أو أن قلبك متضخم او اذا قال الناس عنك انك مجنون أو مجرم ، وبكلمة واحدة اذا بدأ الناس فى الاهتمام بأمرك فجأة ، فيجب عليك أن تعلم انك وقعت فى دائرة سحرية مغلقة لن تخرج منها ابدا وكلما حاولت تحرير نفسك كلما ضللت أكثر ٠ لذا يجب ان تستسلم لأنه لا توجد اى قوة تستطيع تحريرك ، هكذا أرى ٠

وكان الجمهور قد تجمع أمام شـــباك رجل البريد فنهض اندريه يفيمتش ليودع صاحبه حتى لا يعطله عن العمل ٠ وأخذ ميخائيل افريانتش وعدا آخر من صديقه ثم ودعه الى الباب الخارجى ٠

وفى نفس اليوم قبيل المســــاء جاء خوبوتوف الى أندريه يفيمتش ، وكان مرتديا معطفه القصير وحذاءه ذا الكعب العالى ، وقال له كما لو ان شيئا لم يحدث البتة :

ـ لقد اتيت لك يا زميلى لموضوع متعلق بالعمل ٠ أنا أدعوك لتأتى معى لنشكل « كونسلتو » طبيا للكشف على أحد المرضى ٠

فظن أندريه يفيمتش أن خوبوتوف يريد ان يرفه عنه بالتنزه أو أنه يعطيه فرصة للتكسب فارتدى اندريه يفيمتش ملابسه وخرج مع خوبوتوف ، وسر من أن خوبوتوف يمنحه الفرصة لمحو غلطة الأمس وللتصالح فشكر له اندريه يفيمتش كل هذا فى نفسه، ولم يذكر خوبوتوف شيئا عما وقع بالأمس ، وكان من الصعب توقع هذه الرقة من انسان غير مهذب مثل خوبوتوف .

وسأله اندريه يفيمتش :

ـ أين مريضك هذا !؟

ـ عندى فى المستشفى ، لقد كنت أود ان اريه لك من مدة ... حالة نادرة .

ودخلا فناء المستشفى ثم سارا بجوار المبنى الرئيسى متجهين الى مبنى عنبر المجانين ولما دخلاه نهض نيكيتا كعادته .

وبعد أن دخلا العنبر قال خوبوتوف خافضا صوته قليلا :

ـ لقد حدث لاحدهم هنا مضاعفات فى الرئة . انتظرنى قليلا ، سأحضر سماعتى .

وخرج .

- ١٧ -

كان الوقت مساء ، وكان ايفان ديمترتش راقدا على سريره مخبئا وجهه فى الوسادة ، وكان المشلول جالسا بلا حراك يبكى فى هدوء متلمظا بشـــــفتيه ، أما الفلاح السمين ومصنف البريد السابق فكانا نائمين . كان الهدوء يسود العنبر .

جلس أندريه يفيمتش على سرير ايفان ديمترتش منتظرا ، ومرت نصف ساعة ، وبدلا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكا بصرة بهـــا معطف وملابس داخلية وقال بصوت خفيض :

ـ تفضلوا سيادتكم بتغيير الملابس ، ها هو سريرك .
وأشار الى سرير لم يكن هنا من قبل ، وأضاف :
ـ لا تحزن ، قريبا ستشفى باذن الله .

فهم أندريه يفيمتش كل شيء ،ونهض صامتا ليجلس على السرير الذى أشار اليه نيكيتا ، ولما رأى أن نيكيتا ينتظر تعرى من ملابســه كلها واحمر خجلا ، ثم ارتدى ملابس المستشـــفى ، وكانت السراويل قصـــيرة جدا ، ورائحة السمك المملح تفوح من المعطف .

وردد نيكيتا :
ـ ستشفى باذن الله .

ثم أخذ الملابس وخرج مغلقا الباب خلفه ٠

وفكر أندريه يفيمتش وهو يلملم المعطف بخجل ويشعر أنه في ردائه الجديد أشبه بالسجين « كل شيء سواء ٠٠ كل شيء سواء ٠٠ لا فرق بين الحلة وبين البزة العسكرية وبين هذا المعطف ٠٠ ولكن الساعة ! والمذكرة الموجودة في الجيب الجانبي ؟ والسجائر ؟ الى أين حمل نيكيتا الملابس ؟ يبدو أنني لن أرتدي مرة أخرى بنطلونا أو صديريا أو حذاء ، الى الممات » ان ذلك لغريب وغير مفهوم للوهلة الأولى ٠ وحتى هذه اللحظة كان أندريه يفيمتش لا يزال مؤمنا بأنه لا فرق بين منزل بيلوفا وبين العنبر رقم ٦ ، وأن كل شيء على وجه الأرض ترهات وأشياء مصيرها الزوال ، ولكن كانت يداه ترتجف وأقدامه تبرد وسيطر عليه شعور ثقيل اذ قريبا سينهض ايفان ديمترتش وسيراه في المعطف ، فنهض وتمشى في الغرفة قليلا ثم جلس ، وظل جالسا حوالى ساعة فأصابه الملل ٠ أمن المعقول ان يستطيع المرء الحياة هنا لمدة يوم وأسبوع وسنوات مثل هؤلاء الناس ؟ حسنا ، لقد جلس ثم تمشى ثم جلس ثانية ، ومن الممكن أن يذهب لينظر من النافذة ثم يتمشى من ركن لآخر ، ثم ماذا ؟ أيجلس المرء طول الوقت كالمشدوه ويفكر ؟ لا ، هذا مستحيل ٠

ورقد أندريه يفيمتش ولكنه نهض في الحال ومسح العرق البارد من فوق جبينه بكم المعطف فشعر برائحة

السمك المملح تنبعث من كل وجهه ، فبدأ فى السير ثانية، ورفع كفيه الى أعلى وقال متعجبا :

ـ هناك سوء فهم ‥ لا بد من ايضاح الأمر فهناك سوء فهم ...

وهنا استيقظ ايفان ديمترتش وجلس واضعا يديه تحت ذقنه وبصق ، ثم نظر بتكاسل الى الطبيب ويبدو انه لأول وهلة لم يفهم ما يحدث حوله ، ولكن سريعا ماأصبح وجهه قاسيا هازئا وقال مغمضا احدى عينيه وبصـوت مبحوح من اثر النوم :

ـ أها ، لقد جاءوا بك انت ايضا يا عزيزى ! انى لمسرور • لقد كنت تمتص دم الناس والآن سيمتص دمك • رائع !

فأخافت تلك الكلمات اندريه يفيمتش وقال :

ـ لقد وقع سوء فهم •

ورفع كتفيه وكرر .

ـ هناك سوء فهم •

وبصق ايفان ديمترتش ورقد ثم قال بضيق :

ـ يا لها من حياة ملعونة ! واكثر ما يحزن اننا لن نكافأ على تحمل كل هذه الآلام ولن تنتهى حياتنا نهاية سعيدة كما يحدث عادة في الاوبرا بل ستنتهى بالموت •

وسيأتون لحمل جثثنا من الايدى والارجل • ويلقون بنا فى بدروم المستشفى • اوف ! ولكن حسنا ••• ستكون حياتنا فى العالم الآخر عيدا ••• وسأحضر من العالم الآخر كشبح لأخيف أولئك الانذال • سأجعلهم يجنون •

وعندما عاد موسيكا ورأى الطبيب مد له يده قائلا:

ــ اعطنى كوبيكا !

- ١٨ -

توجه أندريه يفيمتش الى النافذة وكان الظلام قد خيم ، ورأى فى الأفق عن ناحيــة اليمــين القمر قد سطع باردا أحمر اللون ، وغير بعيــد على بعد حوالى مائة ذراع ــ لا أكثر ــ من سور المستشفى يقع مبنى أبيض مرتفع ذو جدران حجرية ، ذلك هو السجن •

وفكر أندريه يفيمتش « هذا هو الواقع » فداخله الرعب •

وبدا له كل شىء مخيفا ــ القمر ، السجن ، المسامير على الســـور ووهــج النــيران وأحس بأنفـــاس خلف ظهره وعندما اســتدار وجد رجـــلا تلمع على صـــدره نجوم وأوسمة يبتسم ، ويغمز له بعينه ، فبدا له ذلك أيضا مخيفا •

وحاول أندريه يفيمتش أن يقنع نفسه أنه لا يوجد شيء غريب فى القمر أو فى مبنى السجن ، وان النـاس الأصحاء أيضا يضعون على صدورهم الأوسمة ، وانه بمرور الوقت سيتعفن كل شيء وسيتحـول الى تراب ، ولكن فجـأة أحس بيأس هائل فأمسك بقضـبان النافذة بكلتا يديه وصار يهزها بعنف ولكن القضبان القوية لم تتحرك من مكانها ٠

وحتى يتغلب على احساسه بالخوف توجه الى سرير ايفان ديمترتش وجلس عليه وقال وكل جسده يرتجف :

ــ لقد انهرت معنويا يا عزيزى ، انهرت تماما ٠

ومسح العرق من على جبينه ، فأجاب ايفان ديمترتش هازئا :

ــ فلتتفلسف ٠

ــ يا الهى يا الهى ٠٠٠ أجل ، أجـل ٠٠٠ لقـد تفضلت مرة وذكرت أنه لا توجد فى روسيا فلسفة ، ولكن الجميع يتفلسفون حتى البسطاء ٠

وأضاف بلهجة من يريد أن يبكى ويجعل الآخرين يشعرون نحوه بالعطف :

ــ ولكن فلسفة البسطاء لا تؤذى أحدا ٠ لم ياعزيزى

تضحك بتشفي ؟ وكيف لا يتفلسف البسطاء اذا كانوا غير راضين عن وضعهم ؟ ان الانسان الذكى ، المثقف ، الأبى ، المحب للحرية ، المخلوق على صورة الآلهة يجد نفسه مضطرا للعمل فى مستشفى مدينة صغيرة غبية ، ولا يرى فى حياته سوى كاسات الهواء واللزقات والأربطة • يا له من خداع وضيق أفق ووضاعة ! يا الهى !

ـ انك تثرثر بترهات • اذا كنت متقززا من التطبيب فلماذا لم تصبح وزيرا ؟

ـ لا مخرج ، لا مخرج • اننا ضعفاء يا صديقى ، لقد كنت هادىء النفس سليم التفكير طالما لم تمسنى الحياة القاسية ، فما ان مستنى حتى انهارت روحى المعنوية ••• يا للتهلهل ••• اننا لضعفاء متهلهلون •• وأنت أيضا كذلك يا عزيزى • انك ذكى ، كريم الخلق ، بل لقد رضعت نبل الأخلاق مع لبن الأم ولكن ما ان طرقت أبواب الحياة حتى تعبت ومرضت ••• ضعفاء نحن !

ولقد شعر أندريه يفيمتش مع هبوط المساء باحساس لزج غير مفهوم ، بخلاف الحزن والخوف ، وأخيرا أدرك أنه بحاجة الى البيرة والدخان فقال :

ـ سأخرج من هنا يا عزيزى ، سأطلب منهم احضار مصباح ••• اننى لا أستطيع هكذا ••• لن أتحمل •••

وتوجه أندريه يفيمتش الى باب العنبر وفتحه ، ولكن نيكيتا نهض سريعا وسد الطريق قائلا :

ـ الى أين ؟ ممنوع ، ممنوع ! حان وقت النوم !

فقال أندريه يفيمتش بسرعة :

ـ ولكنى سأخرج لفترة وجيزة ، سأتريض قليلا فى الفناء !

ـ ممنوع ، ممنوع ! الأوامر لا تسمح بذلك . انك يا سيدى تعلم بنفسك .

وقفل نيكيتا الباب بقوة وسنده بظهره ، فتساءل أندريه يفيمتش متعجبا :

ـ ولكن ماذا سيحدث اذا خرجت من هنا ؟ أنا لا أفهم ! نيكيتا ، انى محتاج للخروج !

وأضاف بنبرات متقطعة :

ـ انى فى أمس الحاجة !

فقال نيكيتا ناصحا :

ـ لا داعى للفوضى ! هذا غير حسن !

فصرخ ايفان ديمترتش فجأة :

ـ يا للشيطان !

ونهض مسرعا وأضاف :

ـ أى حق يخول له منعنا من الخروج ؟ كيف يجرءون على سجننا هنا ؟ ان القانون ـ على ما أظن ـ ينص صراحة انه لايمكن مصادرة الحريات دون محاكمة ! ان هذا لقهر واغتصاب ! انها لفوضى !

فقـال اندريه يفيمتش متشـجعا بصراخ ايفـــان ديمترتش :

ـ طبعـا فوضى ! اننى محتـاج للخروج فيجب أن أخرج . انه لا يملك الحق فى منعى . افتح نقول لك !

فصرخ ايفان ديمترتش مرتجفا :

ـ افتح ! انى أطالب بذلك !

وقال نيكيتا من وراء الباب :

ـ فلتتكلم كما يحلو لك ! قل ، قل !

فقال أندريه يفيمتش :

ـ على أقل تقدير اذهب واستدع يفجينى فيودرتش! قل له انى أرجوه أن يأتى ... لدقيقة واحدة .

ـ سيحضر بنفسه غدا .

فقال ايفان ديمترتش :

ـ لن يخرجونا من هنا أبدا ! سنتعفن هنا يا الهى !
هل فعلا لاتوجد جهنم وسيفلت هؤلاء الأنذال من العقاب ؟
أين اذن العدالة ؟

وصرخ بصوت متحشرج :

ـ افتح يا نذل ، انى أختنق !

وارتمى على الباب صارخا :

ـ سأحطم رأسى ! يا قتلة !

ففتح نيكيتا البـــاب بسرعة ودفع أندريه يفيمتش بقسوة فى ظهره بكلتا يديه وركبته ، ثم ضربه بقبضـــة يده وبكل قوته على وجهه ، فشعر أندريه يفيمتش بموجة مالحة هائلة غطته الى قمة رأسه وقذفت به الى السرير ، وفعلا أحس بطعم مالح فى فمه ، لابد أن الدم ينزف من أسنانه ، وجدف بيديه كما لو كان يسبح وأمسك بأحد الأسرة ، وشعر بضربتين قويتين أخريين ٠

وصرخ ايفان ديمترتش ، لا بد أنه يضرب هو الآخر ٠

ساد الهدوء ٠ وكان ضوء القمر ينساب خلال قضبان النـــافذة مكونا على الارضية ظلا يشبه الشـــبكة ٠ ورقد أندريه يفيمتش على السرير حابسا أنفـاسه ينتظر برعب ضربات أخرى ، وأحس كمـــا لو أن أحدا وضع فى جوفه منجلا حادا ثم قلبه عدة مرات فى صدره وأحشائه ، فعض

الوسادة من الألم الحاد ، وفجأة وبين الفوضى اللانهائية فى رأسه ظهرت فكرة فظيعة غير محتملة : انه كان على هؤلاء الناس هنا فى العنبر ــ هؤلاء الناس الاشبه بالخيالات السوداء فى ضوء القمر الشاحب ــ أن يقاسوا لمدة سنين ليالى كثيرة مثل هذه الليلة . كيف كان ذلك يحدث لمدة عشرين سنة وأكثر وهو لا يشعر أو لا يريد أن يشعر ؟ انه لم يعرف الألم بل لم يكن عنده أى فكرة عن الالم ، اذن فهو غير مذنب . ولكن ضميره كان قلقا ، وفظا مثل ضمير نيكيتا ، فتملكته الرجفة من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، فنهض مسرعا وأراد أن يصرخ بكل قوته ثم يجرى ليقتل نيكيتا وخوبوتوف وكبير الممرضين وأمين المخزن ثم يقتل نفسه ، ولكن لم يخرج من حلقه أى صوت ولم تطعه قدماه وأحس بالاختناق فمزق المعطف والقميص من على صدره وارتمى على السرير مغميا عليه .

- ١٩ -

وفى صباح اليوم التالى كانت رأسه تؤلمه ، ويسمع صفيرا فى أذنيه ويشعر بكل جسده محطما ، ولم يخجل من ضعفه بالأمس ، لقد كان بالامس جبانا خائفا حتى من ضوء القمر بل لقد ذكر بصراحة وصدق بعض الافكار والاحساسات التى لم يكن يظن أنها موجودة أصلا فى

رأسه ، مثل فكره أن البسطاء يتفلسفون لانهم غير راضين • ولكن الآن كل شيء سواء بالنسبة له ، ولم يكن يأكل أو يشرب ، بل رقد ساكنا صامتا • وعندما كان يوجه اليه أحد سؤالا كان يفكر « كل شيء سواء ، لن أجاوب ••• بالنسبة لى كل شيء سواء » •

وبعد الغداء حضر ميخائيل أفريانتش وأحضر معه ربع رطل شاى ورطل حلوى ، كما حضرت داريوشكا ووقفت لمدة ساعة بجوار سريره وعلى وجهها يرتسم تعبير حزن غبى ، ثم زاره خوبوتوف وأحضر له زجاجة بروميد الصوديوم وأمر نيكيتا أن يدخن العنبر بأى شيء محترق ليطرد منه الروائح •

وقبيل المساء مات أندريه يفيمتش اثر انفجار شرايين المخ • شعر أولا برعشة هائلة وغثيان ، ثم أحس كما لو أن شيئا مقززا بدأ يملأ جسده حتى لقد دخل الى أصابعه ثم صعد من معدته الى رأسه وغطى عينيه وأذنيه ، ثم رأى أمام عينيه شيئا أخضر اللون • وأدرك أندريه يفيمتش أن نهايته قد حانت ، وتذكر أن ايفان ديمترتش وميخائيل أفريانتش وملايين آخرين من البشر يؤمنون بالابدية والحياة الاخرى • أتكون هناك حياة أخرى ؟ ولكنه لم يشعر بأى رغبة فى الحياة الابدية ولم يفكر فيها الا للحظة خاطفة • ها هو قطيع من الغزلان ذات الجمال الأخاذ تلك الغزلان التى قرأ عنها بالامس فى منزله • وها هى امرأة تمد

يدها بخطاب مسجل ·· وها هو ميخائيل افريانتش قد قال شيئا · ثم اختفى كل شيء · وسكن أندريه يفيمتش الى الابد ·

وجاء عمال المستشفى وحملوه من يديه وقدميه وحملوه الى ، وقضى الجثمان الليلة على المنضدة بأعين مفتوحة تحت ضوء القمر · وفى الصباح حضر كبير الممرضين حيث قرأ صلاة أوشية الموتى ثم أقفل عينى رئيسه السابق ·

ودفن أندريه يفيمتش فى اليوم التالى · ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل افريانتش وداريوشكا ·

« **تمت** »



ونقدم لك قريبا

مدينة بلا قلب

شعر : أحمد عبد المعطي حجازي

ألحان مصرية

شعر : صالح جودت

ناي وشموع

شعر : محسن الخياط

الناس اللي تحت

تأليف: نعمان عاشور

وبعدنا الطوفان

تأليف : سليمان فياض

فى العدد القادم

الحسناء والعبيط

قصة تدور أحداثها فى منصف القرن الماضى ..

قصة تروى لنا كيف يمكن لشاب أن يتمسك بمبادئه وأخلاقياته ، مخترقاً سدود العبث واللامبالاة والغرور التى تحتجز أمثاله من الشباب .

قصة تحكى الصراع بين المثل العليا واللا أخلاقيات . من سينتصر فى النهاية ، الشاب «العبيط» الجاد أم الشباب المدله العابث ؟

هذا ما تجيبنا عليه رواية

الحسناء والعبيط

تأليف

أ . بيسيمسكى

ترجمة

حسين القبانى

ملتزم التوزيع

في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم

الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ـ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢ القاهرة
٢ ـ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ ـ فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ ـ فرع الميدان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ ـ فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢ القاهرة
٦ ـ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣ القاهرة
٧ ـ فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ ـ فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٩٣١٤ القاهرة
٩ ـ فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ ـ فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الاسكندرية
١١ ـ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ ـ فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ ـ فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ ـ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ـ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ـ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ـ عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ أيار ـ دمشق	سوريا
٥ ـ الشركة العربية للتوزيع	ص . ب رقم ١٢١٨ بيروت	لبنان
٦ ـ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ـ بغداد	العراق
٧ ـ رجا العيسى	وكالة التوزيع ـ عمان	الأردن
٨ ـ عبد العزيز العيسى	دار للتوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ـ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ـ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ـ ليبيا	بنغازي
١١ ـ محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ـ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ـ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ـ المكتبة الوطنية	المنامة ـ الخليج العربي	البحرين
١٥ ـ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ـ عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبي / عمان
١٧ ـ المكتبة الحديثة	ص ب ٢٧	مسقط
١٨ ـ أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ـ مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ـ علي ابراهيم شمر	ص . ب ٨٢	أسمرة
٢١ ـ عبد الله قاسم الحراري	ص ب ١٧٢٤	أديس أبابا
٢٢ ـ مكتبة ستر	ص ب ٩٣٦	مقديشو
٢٣ ـ عبد الله عزيز محمد	ص ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ـ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ـ المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كمحار ص . ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ـ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ـ مكتبة الفجر		وادي مدني
٢٨ ـ زكي جرجس بطليوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ـ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ـ عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص ب ٢٤	عطبرة
٣١ ـ غنى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٤	وادي مدني
٣٢ ـ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري ـ لبنان ٥٠ قرش لبناني ـ الأردن ٥٠ فلس ـ العراق ٥٠ فلس ـ الكويت ٧٠ فلس ـ السودان ٥٠ مليم ـ ليبيا ٥٠ مليم ـ قطر ٧٥ درهم ـ البحرين ٧٥ فلس ـ عدن ١٠٠ سنت ـ أديس أبابا ٥٠ سنتا ـ أسمرة ٥٠ سنت ـ الجزائر ٨٠ سنتيم

دار الكاتب العربي

تواصل إصدارها للأعمال الكاملة

فتقدم

الجزء الرابع من أعمال الفنان العملاق

دوستويفسكى

مذلون مهانون

ترجمة : د. سامي الدروبي

طبع الغلاف بدار الكاتب العربي للطباعة والنشر - بالقاهرة